أ. د محمد سيد أحمد المسير

التمهيد

في دراسة العقيدة الإسلامية

أ.د محمد سيد أحمد المسير

التمهيد

في دراسة العقيدة الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ — ١٩٩٨ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر / القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..

أما بعـــد :

فى عام (١٤١١ هـ — ١٩٩٠ م) صدر لى كتاب « فى نور العقيدة الإسلامية » يضم أربعمائة صفحة تقريبا ، ويسر الله له القبول وقت بتدريسه فى جامعة الأزهر ، والمعهد العالى للدراسات الإسلامية ، وقررته وزارة الأوقاف تدريسه فى مراكز إعداد الدعاة على مستوى الجمهورية ..

وأصدر الإمام الراحل فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر السابق أمراً مباشرا بتوفير كمية من هذا الكتاب لتوزيعها على أئمة العالم الإسلامى فى دوراتهم التدريبية التى يعقـــدها لهم الأزهر الشريف ..

ثم شاء الله تعالى أن أذهب معارا إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام (١٤١٣ هـ — ١٩٩٣ م) فدرسته هناك للطلاب والطالبات ..

وكان الكتاب فى كل هذه المراحل يصور بقدر الحاجة بعدما نفذت طبعته الأولى ..

ورغب إلىّ بعض الأصدقاء أن أخرج الكتاب فى طبعة جديدة فاستعنت بالله وأعدت النظر فإذا بأبحاث تنقح ، ومسائل تضاف ، وموضوعات تستكمل ، وأفكار تتوالد ، وآراء تتجدد ..

وكان فضل الله كبيرا لجاءت الدراسات فى شكلها الجديد على أربعة أجزاء ، هى :

١ — التمهيد فى دراسة العقيدة الإسلامية .

٢ — الإلهيات فى العقيدة الإسلامية .

٣ — النبوات فى العقيدة الإسلامية .

٤ — السمعيات فى العقيدة الإسلامية .

وليسمح لى القارىء الكريم أن أقدم له الجزء الأول ، فقد جاء — بتوفيق الله — متضمنا خمسة مباحث ، على النحو التالى :

المبحث الأول :

بين يدى الموضوع

قدمت بيان أهمية دراسة العقيدة ، والمباحث التى يقوم عليها هذا العلم ، والأسماء التى تطلق عليه ..

وأكدت أن دراسة العقيدة هى أول الواجبات لدى الإنسان العاقل، وأن عقيدة المرء هى ميزان سلوكه وأخلاقه ، وأن الوازع الدينى هو معيار الاستقامة فى هذه الحياة .

المبحث الثانى :

نشأة علم العقيدة وتطوره

وقسمت هذه النشأة وذلك التطور إلى مراحل هى :

١ — مرحلة العهد النبوى .

٢ — مرحلة الصراع العسكرى .

٣ — مرحلة الصراع السياسى .

٤ — مرحلة الصراع الفكرى .

٥ — مرحلة العصر الحديث .

وختمت بكلمة هامسة فى أذن كل داعية بأن لا يعيب بعضنا على بعض فى إطار ضوابط الاجتهاد ومعالم الفكر الراشد.

ونبهت إلى أن الخطر الذى يتهدد العقيدة الإسلامية اليوم ليس من داخل الفرق الإسلامية، وإنما من التيارات الوافدة والمذاهب الهدامة الوافدة التى تسرى مع الهواء، وتتشكل حسب الظروف والأحوال، ويتمثل ذلك فى الثالوث الحديث :

- الخطر الصهيونى.
- الفكر المادى.
- اليسار الإسلامى المزعوم.

وقد أفرخ هذا الثالوث الانحلال الخلقى وعبادة الشيطان ..

المبحث الثالث :

الإسلام وتقرير العقائد

قدمت منهج الإسلام فى تقرير العقائد من خلال شرح هذه الموضوعات :

- المعجزة العقلية لسيدنا محمد ﷺ.
- أصول التفكير فى القرآن المجيد.
- المعرفة والتقليد لدى علماء المسلمين.
- مصادر العقيدة فى الإسلام.
- الحكم وأنواعه.

وظهر بجلاء أن القرآن المجيد قرر عقائد الإيمان كلها مدعمة بالحجة والبرهان، وأن الشعار الذى رفعه القرآن فى حجاجه مع المخالفين هو :

« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[1] .

وبينت أن العقيدة يحكمها العقل ، ويصحح مسارها الوحي ، وأن مسألة الإيمان والكفر ترتبط بما كان قطعي الثبوت والدلالة معاً ، فإن فقد القطع في أحدهما فليس هناك عقيدة يترتب عليها الإيمان والكفر ..

المبحث الرابع :

خصائص العقيدة الإسلامية

إن العقيدة الإسلامية تتلخص في كلمتين اثنتين هما :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله

وهذه العقيدة من الوضوح واليسر ، ومن العمق والحكمة ، ومن الصدق والحق ما يجعلها تسري في كيان الإنسان سريان الدم في العروق ، وتتغلغل في أعماقه فتستقر في قرار مكين من عقله وقلبه ..

فهي صوت الفطرة ، ودعوة الأنبياء ، والدين الخالص لله ...

المبحث الخامس :

قراءة في كتب العقيدة

وقد اخترت نماذج أربعة هي :

١ — التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل

للإمام ابن خزيمة المتوفى ٣١١ هـ .

٢ — المواقف في علم الكلام ..

للإمام عضد الدين الإيجي المتوفى ٧٥٦ هـ .

---

(١) سورة النمل الآية ٦٤

٣ ـ شرح العقيدة الطحاوية

للشيخ ابن أبي العز الدمشقي المتوفى ٧٩٢ هـ

٤ ـ رسالة التوحيد

للإمام محمد عبده المتوفى ١٣٢٣ هـ

وكان النموذج الأول تمثيلا للاتجاه النصي، وكان الثاني تمثيلا للاتجاه الكلامي، وكان الثالث تمثيلا للاتجاه التوفيق بين النصي والكلامي وكان الرابع تمثيلا للاتجاه الحديث الذي يسعى إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية ..

ولعل في هـــذا التمهيد مايفتح آفاقا جديدة للبحث والدراسة حول العقيدة الإسلامية ..

« ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »[1] .

مكة المكرمة في { ٢٠ من رجب ١٤١٨ هـ
٢٠ من نوفمبر ١٩٩٧ م }

أبو حذيفة
د . محمد سيد أحمد المسير
أستاذ العقيدة والفلسفة
بجامعة الأزهر بالقاهرة
وجامعة أم القرى بمكة المكرمة

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨

المبحث الأول

بين يدي الموضوع

- أهمية دراسة علم العقيدة
- مباحث علم العقيدة
- أسماء علم العقيدة

أهمية دراسة علم العقيدة

إن دراسة العقيدة هى أول الواجبات لدى الإنسان العاقل ، فليس بالخبز وحده يعيش الإنسان ، وعقيدة المرء هى ميزان سلوكه وأخلاقه ، والوازع الدينى هو معيار الاستقامة فى هذه الحياة .

وإن نقطة البدء فى كل حضارة هى العقيدة التى تحدد الهدف وتحكم السلوك وتوجه المسيرة .

وقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم فى مفتتح دراساتهم عن العقيدة الإسلامية الفائدة المرجوة من هذه الدراسة .. وقال عضد الدين الإيجى وهى أمور :

الأول : الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

الثانى : إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة .

الثالث : حفظ قواعد الدين من أن تزلزلها شبه المبطلين .

الرابع : أن تبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

الخامس : صحة النية والاعتقاد . إذ بها يرجى قبول العمل ، وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين[١] .

---

(١) المواقف صـ ٨ ط بيروت .

ولتفصيل ذلك نقول :

١ — العلم بالله تعالى أشرف العلوم :

ميز الله تعالى الإنسان بالعقل وكرمه بالدين وأعلى درجته بالعلم ، والإنسان جسم وروح ، وغذاء الجسم فيما قدر الله على الأرض من أقوات ، وغذاء الروح فيما شرع الله من هدى وما أنزل من وحى .

وإذا كان الإنسان يسعى فى مناكب الأرض يبتغى فضل الله فى الرزق فواجب عليه أن يفكر ويتأمل ليدرك صنع الله الذى أتقن كل شىء وليصل إلى حقيقة الحقائق وكبرى اليقينيات وهى أنه لا إله إلا الله ...

فالإيمان القائم على العلم هو الذى يسمو بالإنسان ويرقى به إلى الكرامة الحقيقية ، ويمنحه الوجود المتميز عن سائر المخلوقات .

وقد أعلى الله منزلة العلماء فقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم »[1] .

وخص الله العلماء بالخشية فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[2] فعلى قدر معرفة الإنسان بربه تكون خشيته منه سبحانه .

وميز القرآن أهل العلم فقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[3] .

وجاءت الأحاديث الشريفة على هذا المنوال فجعلت الفقه فى الدين

---

(١) سورة آل عمران — الآية ١٨
(٢) سورة فاطر — الآية ٢٨
(٣) سورة المجادلة — الآية ١١

من أجل النعم على عباد الله، فقال النبي — ﷺ — « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ».

وجعل الرسول — عليه الصلاة والسلام — العلم مجالا للتنافس الشريف فقال: « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ».

ومن هنا كان طلب العلم فريضة، وكان طالب العلم معاناً من الله، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ... ».

وقمة العلم وذروة سنامه ما يتصل بالله جل جلاله، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واليوم الآخر وما فيه من حساب وسؤال وجنة ونار، وشرف العلوم بشرف موضوعاتها .. فالله أعلى وأجل.

٢ — بيان العقيدة الصحيحة وإقامة الحجة عليها:

يتحمل المسلم عقيدته لنفسه ولغيره، فهو يوقن بها عن علم ويبلغها عن بصيرة، فالإسلام دعوة عالمية تواجه العقائد المختلفة والمذاهب المتباينة.

وعلم العقيدة تتأكد أهميته في جانبين:

١ — بناء عقيدة المسلم وتوضيح جوانبها وبيان محاسنها.

٢ — إقامة الحجة على المخالفين، وذلك بأن يقوم العلماء بدراسة العقائد المختلفة الفاسدة لبيان زيفها وإبطال مضمونها، وتقديم العقيدة الإسلامية مؤيدة بالدليل مدعمة بالبرهان حتى يستطيع الناس تصحيح عقائدهم وتنقطع أعذارهم.

فإن الله تعالى قد ربط التكليف ببعثة الرسل وبلوغ الدعوة على وجهها الصحيح .. فقال جل شأنه : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً»(١) .

وقال سبحانه : «رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»(٢) .

٣ — مواجهة شبهات المبطلين :

ونحن نواجه طوائف البشر فى عقائدهم الفاسدة ، ونقدم لهم عقيدة الفطرة النقية لن يدعنا شياطين الإنس دون شبهات وأباطيل فى محاولات يائسة لصد الدعوة والوقوف فى وجهها .

ولهذا يتأكد على العالم المسلم أن يتهيأ لرد الشبهات وحفظ قواعد الدين من أن تزلزلها أباطيل الأعداء .

وقد يتوجس البعض من الخوض فى الشبهات بحجة إفسادها للعقائد ، وأن الفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها ، ولكن واجب حراس العقيدة وعلماء الدين أن يواجهوا هذه الشبهات ويزيلوها بالبينات حتى لا تسرى فى الظلام وتتسرب إلى عقول العامة وقلوب الناشئة ، فلكل مقام مقال ...

٤ — علم العقيدة أساس العلوم الشرعية :

القرآن المجيد محفوظ فى الصدور ، مدون فى السطور ، متواتر فى النقل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهيأ الله لسنة نبيه ﷺ من دونها وحفظها ، ونشأت العلوم الشرعية حول الكتاب والسنة تفسيراً وشرحاً واستنباطاً ، وتواكبت علوم كثيرة لخدمة العلوم الشرعية كعلوم اللغة العربية وآدابها .

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥

وحرص المسلم على دراسة كل هذه العلوم الأصلية والفرعية انطلاقا من الأمر الإلهي الأول : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

لكن هذه العلوم الشرعية إنما تتقبل بناء على صدق العقيدة فى أن القرآن كلام الله وأن الحديث كلام رسوله الله وأن أحكام الفقه مستنبطة من الوحى المنزل .

فلا تفسير بغير عقيدة أن الله هو الذى نزل القرآن ، ولاحديث بغير عقيدة أن محمداً رسول الله ، ولاعبادات ومعاملات بغير عقيدة أن المعبود بحق هو الله جل جلاله .. فمعرفة المعبود بالجلال والكمال مقدمة معرفة العبادة بالشروط والأحكام .

٥ — العقيدة وإخلاص النية :

إن الأخلاق والعبادات والمعاملات وأفعال الخير كلها وخصال المعروف بأجمعه إنما يثاب عليها المرء فى الآخرة وتتقبل منه عند الله عزوجل إذا انطلقت من إيمان صحيح وقامت على عقيدة صادقة ، ودفع إليها يقين بلقاء الله .

فلا عمل بغير إيمان .

والنية هى مدار صحة العمل .

والإخلاص هو أساس القبول .

قال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة »[1] .

وقال جل شأنه : « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أومعروف أوإصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما »[2] .

---

(١) سورة البينة : الآية ٥ (٢) سورة النساء : الآية ١١٤

وأكد القرآن المجيد أن أعمال الكافرين مردودة عليهم ولا ثواب لهم عنها فقال : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا »[١] .

وقيل في معنى الهباء المنثور أنه شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، أو ورق الشجر اليابس إذا ذرته الريح ، أو الرماد ، وقال الإمام ابن كثير في تفسيره : وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً إذا هي لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية » .

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية فقال جل شأنه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد »[٢] .

وفي تشبيه آخر بليغ يقول سبحانه وتعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور »[٣] .

والسراب هو ما يرى في الفلاة وقت شدة الحر أنه الماء الجاري فإذا قرب منه الناظر لم يجد شيئاً .

والقيعة هي الأرض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب .

---

(١) سورة الفرقان — الآية ٢٣
(٢) « إبراهيم — الآية ١٨
(٣) « النور — الآية ٤٠

وأعمال الكافرين نوعان: نوع يفعله الكافر يحسبه خيراً كصلة رحم وإغاثة ملهوف وهذا هو الذى يشبه بالسراب.

ونوع يفعله الكافر من سلوكيات الإثم والفجور وهـــذا هو الذى يشبه بالظلمات بعضها فوق بعض .. فظلمة السلوك مع ظلمة الاعتقاد أطبقت على الكافر فخسر الدنيا والآخرة.

وجاء فى صحيح الحديث ما يؤكد هـــذا المعنى قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: لا إنه لم يقل يوما رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين.

وروى الإمام أحمد أن عدى بن حاتم الطائى قال: يا رسول الله إن أبى كان يصل الرحم، ويفعل ويفعل، فهل له فى ذلك؟ يعنى من أجر، قال عليه الصلاة والسلام «إن أباك طلب شيئاً فأصابه» وفى رواية: إن أباك أراد أمرا فأدركه .. يعنى الذكر.

إن إخلاص النية وصحة العمل مرتبط بصدق العقيدة وصفاء القلب الموصول بالله عز وجل.. ولن يتحقق ذلك إلا بعلم العقيدة ومعرفة أصول الدين ولهذا جاء فى صحيح الحديث: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

فسعادة الدنيا والآخرة مرهونة بالإيمان والعمل الصالح.

* * *

مباحث علم العقيدة

مباحث علم العقيدة تنتظم أموراً جوهرية هى :

١ — الإيمان بالله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة .

٢ — الإيمان بالملائكة الكرام البررة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

٣ — الإيمان بالكتب المنزلة لهداية البشر وليقوم الناس بالقسط .

٤ — الإيمان بالرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله من خلقه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

٥ — الإيمان باليوم الآخر ، يوم الفصل بين الناس ، حين يقومون لرب العالمين ، وتجد كل نفس ما قدمت وأخرت .

وقد اصطلح العلماء على تقسيم هذه الأمور إلى مباحث ثلاثة هى :

— الإلهيات :

ويتعلق بها ما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حق الله تعالى ، وترتبط بها أبحاث تتعلق بالقضاء والقدر والحسن والقبح والصلاح والأصلح والجبر والاختيار .

— النبوات :

ويتعلق بها ما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حق الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وترتبط بها أبحاث تتعلق بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات المختلفة .

— السمعيات :

وهي الأمور التي تتلقى بالسماع من المعصوم، وتدخل في دائرة الجواز العقلي، وتدور حول الملائكة والجن والبعث والشفاعة والميزان والصراط والجنة والنار .

وكثير من هذه المباحث ليس عقيدة يتوقف عليها الإيمان والكفر ، فهي أمور اجتهادية ، يجوز فيها الخلاف وتتعدد حولها الآراء بناء على وضوح الدليل وصفاء الفهم ، وقوة التأمل ، وحسن النية ...

فموضوع الصفات والتأويل فيها أو التفويض .

وموضوع رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة .

وموضوع الفرق بين النبي والرسول .

وموضوع التفاضل بين الأنبياء والملائكة .

وموضوع الشفاعة لأهل الكبائر في الآخرة .

وموضوع حقيقة الوزن والميزان يوم الحساب .

وموضوعات عدة مشابهة يجوز فيها الاجتهاد وتعدد الآراء ، وهي أمور ملحقة بالعقيدة كعلم وليست من صلب العقيدة كدين .. فإن العقيدة حددها الله تعالى في قوله :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير »[١] .

---

(١) سورة البقرة — الآية ٢٨٥

وبينها الرسول ﷺ فى حديث جبريل المشهور ، عندما جلس إلى النبى الكريم وسأله : ما الإسلام ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

ثم سأله عن الإيمان فقال عليه الصلاة والسلام : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، ثم سأله عن الإحسان فقال عليه الصلاة والسلام : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . »[1] .

هذا وهناك اتجاه ينتسب إلى السلف يدرس العقيدة على أساس تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع :

١ — توحيـــد الربوبية ويعنى الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه ، وأنه سبحانه الخالق المدبر .

٢ — توحيد الأسماء والصفات ويعنى الإيمان بما سمى الله به نفسه ووصفه به رسوله ، وإثباته على وجه يليق بالله تعالى .

٣ — توحيد الألوهية ويعنى إفراد الله تعالى بالعبادة .

ويركز أصحاب هذا الاتجاه على توحيد الألوهية ويرونه متضمنا للنوعين السابقين ، ويغضون الطرف عن توحيد الربوبية بدعوى أنه مركوز فى الفطرة وأن نقيضه معلوم الامتناع عند الناس كلهم .

ومن ثم تقوم دراساتهم فى العقيدة على مسألة الصفات الخبرية وبيان الشرك فى الدعاء والذبح والنذر والرقى والتمائم والسحر والحلف بغير الله والتوسل وزيارة القبور .

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا « الحوار بين الجماعات الإسلامية ».

ومع أنه لا مشاحة فى الاصطلاح إلا أن هذا التقسيم لا ضرورة له ولا تسانده دلالة لغوية أو شرعية ، فالتفرقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية تفرقة مصطنعة ، وقد ورد البيان القرآنى باستخدام لفظ الرب والإله فى معان واحدة تشمل الإقرار والعبادة معاً ...

• فقال يوسف عليه السلام: « ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار »[١] .

فعبر أولا بالأرباب وهى جمع «رب» ، وعبر ثانيا بلفظ الجلالة « الله » فى إطار معنى واحد هو نفى الشرك والتعدد وضرورة إفراد الله تعالى بالعبادة .

• وأمر القرآن بتقوى الله وتقوى الرب فى إطار معنى واحد هو إخلاص العبادة لله فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة »[٢] .

وقال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته .. »[٣] .

• وجاء الأمر القرآنى بعبادة الرب وعبادة الله بلا تفرقة فى المعنى المراد منها فقال : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم .. »[٤] .

وقال : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا »[٥] .

• وتوجه القرآن بالأمر إلى الرسول ﷺ بعبادة الرب وعبادة الله ، وذلك يعنى اتحاد المعنى فى لفظى الرب والله .

---

(١) سورة يوسف ـ الآية ٣٩ — (٢) سورة النساء ـ الآية ١
(٣) « آل عمران ـ الآية ١٠٢
(٤) « البقرة ـ الآية ٢١ — (٥) سورة النساء ـ الآية ٣٦

فقال : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب »(١) .

وقال : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ، الذى حرمها ، وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين »(٢) .

• ووصف القرآن الرب بأنه الخالق المدبر المالك المتصرف ، ووصف الله بنفس هذه المعانى . .

فقال : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »(٣) .

فقد بدأ النص هنا بالحديث عن الرب وختم بالحديث عن الله ، وتكرر ذلك فى القرآن كثيرا ، ولنقرأ هذه الآيات :

« قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟

قل من بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ »(٤) :

• وخص القرآن علم الساعة بالله وبالرب ، وجعل ميقاتها مقصورا

---

(١) سورة الرعد ـ الآية ٣٦ (٢) سورة النمل ـ الآية ٩١

(٣) « البقرة ـ الآية ٢١ ، ٢٢

(٤) « المؤمنون ـ الآية ٨٤ : ٨٩

عليه سبحانه ، بلا تفرقة بين لفظى الرب والله ، فكلاهما يعبر عن معنى التفرد بالعلم والاستئثار بالغيب .

قال جل شأنه : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها ، قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1] .

• وأضاف القرآن جمع الخلائق وحشرهم للحساب والجزاء إلى الرب وإلى الله . .

فقال : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا »[2] .

وقال : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم »[3] .

• وجاء التعبير القرآنى على لسان فرعون بوحدة المعنى فى لفظى الرب والإله ، فقال : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى »[4] .

وقال : « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى »[5] .

فلم يكن فرعون يدعى لنفسه شركا فى السموات ولا فى الأرض ، ولم يزعم أنه خلق نفسه أو خلق أحداً من البشر .. وإنما أراد فرعون بالتعبير فى الموقفين استحقاقه للطاعة واستخفافه بقومه وتسلطه عليهم . .

• • •

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية ١٨٧

(٢) سورة النساء ـ الآية ٧٨ (٣) سورة سبأ ـ الآية ٢٧

(٤) سورة القصص ـ الآية ٣٨ (٥) سورة النازعات ـ الآية ٢٣، ٢٤

إن عقيدة المسلم فى الرب هى عينها عقيدته فى الله ، فالرب هو المستحق للعبادة والله هو الخالق البارىء المصور ، وبالعكس وصدق الله حيث يقول :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين »[1] .

وأياما كان ، فلكل منهجه فى البحث والدراسة مع اتفاق الجميع على التوحيد الخالص لله تعالى ذاتا وصفة وفعلا .

فالله تعالى واحد أحد فى ذاته بلا شريك أو صاحبة أو ولد .

وهو سبحانه واحد أحـــد فى صفاته ولا يشبه أحداً من خلقه ولا يشبهه أحد .

وهو جل شأنه واحد أحد فى فعله ، له الخلق والأمر ، فعال لما يريد .

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية ٥٤

أسماء علم العقيدة

هذه الدراسات فى الإلهيات والنبوات والسمعيات تنضوى تحت علم خاص يسمى بأسماء متعددة ، أهمها :

١ — علم التوحيد :

وسمى بذلك لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه ، والتوحيد هو مركز الدائرة فى رسالات الله جميعاً إلى الخلق ، قال تعالى: « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (١) .

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم :

• كتاب التوحيد لأبى منصور الماتريدى ت ٣٣٣ هـ

• جوهرة التوحيد لبرهان الدين إبراهيم بن هارون اللقانى ت ١٠٤١ هـ

وهى منظومة حظيت بشروح وحواش وتعليقات .

ويقول ناظمها فى مفتتحها :

الحمد لله على صلاته ثم سلام الله مع صلاته
على نبى جاء بالتوحيد وقد عرى الدين عن التوحيد
فأرشد الخلق لدين الحق بسيفه وهديه للحق
محمد العاقب لرسل ربه وآله وصحبه وحزبه
وبعد فالعلم بأصل الدين محتم يحتاج للتبيين

---

(١) سورة الأنبياء — الآية ٢٥

لكن من التطويل كانت الهمم   فصار فيه الاختصار ملتزم
وهذه أرجـــوزة لقبتهـا   جوهرة التوحيد، قد هذبتها
والله أرجو فى القبول نـافعاً   بها مريداً، فى الثواب طامعاً

• رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ت ١٣٢٣ هـ

• كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ابن سليمان التميمى ت ـ ١٢٠٦ هـ

٢ ـــ علم الكلام :

قال صاحب المواقف « وإنما سمى كلاما إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة، أو لأن أبوابه عنونت أولا بالكلام فى كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه، أو لأنه يورث قدرة على الكلام فى الشرعيات ومع الخصم »[1] .

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم :

• نهاية الأقدام فى علم الكلام للإمام أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ت ـــ ٥٤٨ هـ

• غاية المرام فى علم الكلام لسيف الدين الآمدى ت ـــ ٦٣١ هـ

• المواقف فى علم الكلام لعضد الدين الإيجى ت ـــ ٧٥٦ هـ

---

(١) المواقف لعضد الدين الإيجى ص ٨ ط بيروت .

٣ - علم أصول الدين:

فباحث هذا العلم هى أصول الدين وقاعدته ، فلا عمل بغير إيمان ، ولا أخلاق بغير عقيدة .

وقد تكون هذه التسمية فى مقابلة علم أصول الفقه المتعلق باستنبط الأحكام العملية من مظانها الشرعية ..

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم :

- الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبى الحسن الأشعرى ت ٣٣٠ هـ
- أصول الدين للإمام أبى منصور عبد القاهر البغدادى ت ٤٢٩ هـ
- الأربعين فى أصول الدين للإمام فخر الدين الرازى ت ٦٠٦ هـ
- أبكار الأفكار فى أصول الدين لسيف الدين الآمدى ت ٦٣١ هـ

٤ - علم الفقه الأكبر :

الفقه هو الفهم ، وأكبر الفهم وأفضله وأعمقه ما توجه إلى الملأ الأعلى والذات الأقدس والوحى الإلهى الأسمى . .

وهذه التسمية فى مقابلة الفقـــه الأصغر ، الذى هو فقه العبادات والمعاملات ، فلا عبادة إلا بعد معرفة المعبود الحق ، ولا معاملة إلا بمعرفة منهج الله الذى أنزله على رسوله . .

ومن الكتب التى تحمل هـذا العنوان كتاب « الفقه الأكبر »(١)

---

(١) وهو متن يقع فى ست صفحات تقريبا ، ويشكك البعض فى نسبته إلى أبى حنيفة

لأبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ت — ١٥٠ هـ وقد شرحه الملا على القارى ت ١٠١٤ هـ .

كما شرحه أحمد بن محمد المغنيساوى ت ١٠٩٠ هـ

• — علم العقيدة :

وهى الأمور التى تعتقد بالقلب ، وتصدق بالجنان ، ويطمئن إليها الفؤاد ، وترسخ فى الأعماق بحيث تشاقق الروح وتؤاخيها ، ويصر عليها المرء إصراراً كاملا ، ويقتنع بها اقتناعا تاما . .

ومن المؤلفات التى تحمل اسم العقيدة:

كتب تنسب العقيدة إلى مؤلفها مثل :

• العقيدة الطحاوية لأبى جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى [نسبة إلى طحا بصعيد مصر] ت ٣٢١ هـ

• العقائد العضدية لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجى الشيرازى المتوفى ٧٥٦ هـ

• العقائد النسفية لعمر بن محمد النسفى [ت ٥٣٧ هـ] .

• العقيدة الأصفهانية لشمس الدين محمد بن محمود الأصفهانى المولود سنة ٦١٦ هـ بأصفهان والمتوفى سنة ٦٨٨ هـ بالقاهرة ، وقد شرحها الإمام ابن تيمية وخالف مؤلفها فى بعض المقاصد . .

وكتب تنسب العقيدة إلى بلاد سألت عنها مثل :

• العقيدة الواسطية : نسبة إلى بلدة واسط ، يقال إن رجلا منها سأل الإمام ابن تيمية أن يكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته . .

وقيل لأن المؤلف ذكر فيها أن أهل السنة وسط بين فرق الضلال من هذه الأمة .

و كتب تنسب العقيدة إلى فرقة من الفرق مثل :

• شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام أبي القاسم هبة الله ابن الحسن بن منصور الطبرى اللالكائى ت ٤١٨ هـ .

• • •

المبحث الثانى

نشأة علم العقيدة وتطوره

- مرحلة العهد النبوى
- مرحلة الصراع العسكرى
- مرحلة الصراع السياسى
- مرحلة الصراع الفكرى
- مرحلة العصر الحديث :
  - الاتجاه الأشعرى
  - الاتجاه السلفى
  - الاتجاه الاعتزالى
  - كلمة أخيرة

نشأة علم العقيدة
وتطوره

١ — مرحلة العهد النبوى :

لا يكمل عقل الإنسان إلا بالإيمان بخالقه ومبدع الكون والكائنات، ولا تتحقق سعادة البشر إلا بالولاء لمنهج الوحى الإلهى الذى جاءت به الرسل « ليقوم الناس بالقسط » .

والإنسان بطبيعته متسائل « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا »، فهو يتطلع إلى معرفة الغيب ، وإلى علم الأسباب والمسببات ، وإلى اكتشاف المجهول ، والسعى لاكتساب المعرفة بكل شىء .

وعندما أشرقت الأرض بنور ربها وجاء الوحى المحمدى كانت الكلمة الأولى التى هى مفتاح السعادة ومعيار الإيمان — هى كلمة التوحيد « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وافتتح القرآن المجيد بآيات تدعو إلى العلم والمعرفة باسم الرب الذى أبدع وعلم ، وأحكم وأتقن ، وبث دلائل الأنفس والآفاق ، فقال: « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »[١] .

وتوالت العقائد فى النبوة والوحى ، والبعث والحشر ، والحساب والجزاء ، والجنة والنار ، مدعمة بأدلتها العقلية ، تخرج من مشكاة النبوة نورا على نور .

---

(١) سورة العلق — الآية ١:٥

ووقف الناس متسائلين عن بدء الخلق ، ومصير الكون ، وعلاقة الإنسان بخالقه ، وتلقاهم الرسول ﷺ بما يشرح الصدور ويقيم الحجة ويقطع دابر الشبهة .

وعلى سبيل المثال فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن عمران ابن حصين رضى الله عنهما قال :

دخلت على النبي ﷺ ، وعقلت ناقتى بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم فقال : اقبلوا البشرى يابنى تميم ، قالوا : قد بشرتنا فأعطنا (مرتين) .

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم .

قالوا : قد قبلنا يارسول الله .. جئنا نسألك عن هذا الأمر ...

قال : كان الله ولم يكن شىء غيره .

وكان عرشه على الماء .

وكتب فى الذكر كل شىء .

وخلق السموات والأرض .

قال عمران : « فنادى مناد ، ذهبت ناقتك يابن الحصين ، فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب ، فوالله لوددت أنى كنت تركتها .. » .

فى هذا الحديث يقص عمران بن حصين مشهدا فى حضرة النبي ﷺ ، لقد دخل عليه بنو تميم فقال لهم : اقبلوا البشرى أى هلموا أعلمكم عملا صالحا يصل بكم إلى الجنة ويحقق لكم السعادة الأبدية ، لكن القوم ظنوا البشرى مآكل ومشارب وأموالا فطلبوا العطاء العاجل وألحوا فى سؤاله .

وفى هذه الأثناء دخل قوم آخرون من أهل اليمن جاءوا من أجل الهدف السامى ومعرفة الوجود الأعلى والاستقامة على الحق ، فبدأ الرسول ﷺ يشرح لهم الحق ، ويبين لهم بدء الخلق ، ويجيب على تساؤلات القوم .

وفي مواقف عدة تكلم الصحابة في القضاء والقدر، وطرحوا تساؤلات أمام رسول الله ﷺ .. وجاء في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :

كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس فجعل ينكت بمخصرته[١] ثم قال : ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة .

فقال رجل : يارسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ !

فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ :

« فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »[٢] .



وتكاملت العقيدة على عهد رسول الله ﷺ وسلمت من الفتن، وكان إيمان المهاجرين والأنصار هو الإيمان الحق الذي لم تعرف الدنيا له مثيلا

---

(١) المخصرة — بكسر الميم — ما أخذه الإنسان بيده واختصره، من عصا صغيرة وعكاز صغير وغيرهما، ونكس — بتخفيف الكاف وتشديدها — لغتان فصيحتان أي خفض رأسه، ونكت أي خط خطا يسيرا مرة بعد مرة.

(٢) سورة الليل — الآية ٥ : ١٠

فى اليقين به والثبات عليه والدفاع عنه.. وشهد الوحى المنزل بالجنة لكثير منهم، قال تعالى :

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما فى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا »(١) .

وقال جل شأنه :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم »(٢) .

---

(١) سورة الفتح — الآية ١٨

(٢) سورة التوبة — الآية ١٠٠

٢ — مرحلة الصراع العسكرى :

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ووقف الناس حيارى فيمن يخلف الرسول فى قيادة الأمة ، واجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ولحق بهم من المهاجرين أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ..

وبعد مداولات ومراجعات انتهى الاجتماع ببيعة أبى بكر الصديق خليفة لرسول الله وإماما للمسلمين ..

ومنذ تلك اللحظة تفجرت قضايا عقدية ما زالت إلى اليوم محل اجتهاد وبحث ، وتقدمت قضية الإمامة لتحتل مكان الصدارة فى فكر المسلمين ، ولتأخذ وقتا وجهدا ، ولتندفع إلى معارك وحروب ، تركت جروحا غائرة فى جسد الأمة الإسلامية .

ثم تلى ذلك قضية الردة والتكفير ، فقد ارتد بعض الأعراب والقبائل التى كانت حديثة عهد بالإسلام ، وامتنع بعضهم عن إخراج الزكاة .

وحدثت مشاورات بين الخليفة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، فقد رأى عمر الكف عن محاربة مانعى الزكاة حتى لا تتعدد جبهات القتال واحتج بقول رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله .

فرد عليه أبو بكر قائلا :

والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ..

فقال عمر : فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق .

كما ظهرت قضية السنة والبدعة ، وتجلى ذلك في مسألة جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، فقد أخرج البخاري بسنده عن زيد ابن ثابت رضي الله عنه قال :

أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مقتل اليمامة[1] ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر[2] يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن[3] فيذهب كثير من القرآن ؛ وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ ،

قال عمر : هذا — والله — خير .

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه .

قال زيد : فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن . .

---

(١) أي عقب معركة اليمامة في مواجهة مسيلمة الكذاب ، وقتل فيها جماعة كثيرة من الصحابة ، قيل سبعمائة وقيل أكثر .

(٢) أي اشتد وكثر .

(٣) أي المعارك الحربية .

قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال : هو — والله — خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . . .

فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف[١] وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره[٢] « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم » حتى خاتمة براءة . .

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما » .

وقد ساق الإمام ابن حجر في شرحه لهذا الحديث أقوال العلماء في تفسير موقف الصديق والفاروق ومايؤخذ منه من قواعد شرعية . . قال :

قال ابن بطال : إنما نفـــر أبو بكر أولا ثم زيد بن ثابت ثانيا لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله ، فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ، فلما نبههما عمر على فائدة ذلك ، وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة — رجعا إليه . .

قال : ودل ذلك على أن فعل الرسول ﷺ إذا تجرد عن القرائن — وكذا تركه — لا يدل على وجوب ولا تحريم ا هـ

---

(١) العسب بضم الأول والثاني جمع عسيب وهو جريد النخل ، واللخاف بكسر اللام جمع لخفة بفتح اللام ، وهي صفائح الحجارة الرقاق .

(٢) كان شرط الجمع الحفظ في الصدور ، والكتابة بين يدي الرسول ، وهو لم يجدها مع غيره أي مكتوبة ، فالجميع يحفظونها .

وتلك قاعدة مهمة نبدأ بها فى وجه الذين يمنعون الخير ويحرمون الناس من ثواب الله بحجة أن الرسول لم يفعل أو أنه لم يأمر . .

ثم نفى ابن حجر أن يكون موقف الصديق والفاروق زيادة على احتياط رسول الله وأكد أنه مستمد من القواعد التى مهدها الرسول ، ونقل عن ابن الباقلانى قوله : كان الذى فعله أبو بكر من ذلك فرض كفاية ، بدلالة قوله ﷺ « لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن » مع قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه »[1] ، وقوله : « إن هذا لفى الصحف الأولى »[2] وقوله : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة »[3] .

فكل أمر يرجع لإحصائه وحفظه فهو واجب على الكفاية ، وكان ذلك من النصيحة لله ولرسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم .

وقد فهم عمر أن ترك النبى ﷺ جمعه لا دلالة فيه على المنع ، ورجع إليه أبو بكر لما رأى وجه الإصابة فى ذلك ، وأنه ليس فى المنقول ولا فى المعقول ما ينافيه ، وما يترتب على ترك جمعه من ضياع بعضه ، ثم تابعهما زيد بن ثابت وسائر الصحابة على تصويب ذلك)[4] .

وقد أرسى ذلك أصلا كبيراً فى التشريع الإسلامى هو الاستحسان والمصالح المرسلة انطلاقا من قوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »[5] .

---

(١) سورة القيامة ـ الآية ١٧ .
(٢) « الأعلى ـ « ١٨ .
(٣) « البينة ـ « ٢ .
(٤) فتح البارى ـ المجلد التاسع ص ١٣ ط دار الفكر .
(٥) سورة الحج ـ الآية ٧٧ .

يقول الإمام نجم الدين الطوفى :

ومما يؤكد العمل بالمصالح المرسلة أن الصحابة رضى الله عنهم عملوا أموراً لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار :

نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيها أمر ولا نظير ، وولاية العهد من أبى بكر لعمر رضى الله عنهما ولم يتقدم فيها أمر ولا نظير ..

وكذلك ترك الخلافة شورى ، وتدوين الدواوين ، وعمل السكة[1] للمسلمين واتخاذ السجن ، فعل ذلك عمر رضى الله عنه .

وهدم الأوقاف التى بإزاء مسجد رسول الله ﷺ والتوسعة فيه عند ضيقه ، وتجديد الأذان الأول فى الجمعة ، فعل ذلك عثمان رضى الله عنه . كل ذلك لمطلق المصلحة)[2] .

• • •

ثم اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وسارت قوافل النور تمحو ظلام الشرك وظلم الطواغيت ، فدخلت فى الإسلام طوائف تقية ، أو سعياً لمآرب ، أو تربصا بفتنة . .

وكان مقتل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب مفاجأة أذهلت المسلمين وكشفت عن الخطر الهدام الذى يتهدد المسلمين من تلك الطوائف الدخيلة . .

لكن الأمر امتد واستفحل وماجت الأرض بحركة عصيان وتمرد عاتية جمعت كل أصحاب الأهواء وأحكمت حلقاتها على المدينة المنورة وقتلت الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه . .

---

(١) السكة بكسر السين الدراهم المنقوشة .

(٢) شرح مختصر الروضة ـ تحقيق د ، عبد الله بن عبد المحسن التركى جـ ٣ ص ٢١٣ ط الرسالة .

ودهم الأمة ما دهمها من حروب طاحنة فى موقعتى الجمل وصفين ، وانتهت المأساة بمقتل الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى الله عنه فى سحر يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان عام أربعين من الهجرة . . .

وفى هذه المرحلة أطلت على المسلمين أفكار الحلول والاتحاد والتشبيه، وتولى كبرها غلاة الشيعة يتقدمهم عبد الله بن سبأ . .

وامتدت قضية التكفير لتعم المسلمين جميعاً ، فلم يكد ينجو مسلم من أن يحكم بها أو يحكم عليه بها ، وتولى كبرها الخوارج فقد كانوا أكثر الفرق إرهاباً لمجتمع المسلمين .

٣ — مرحلة الصراع السياسى :

انتهت الخلافة الراشدة وأصبح الملك عضوضاً ، وتصدعت الأمة بأحزاب سياسية وفرق دينية ، ألقت السلاح فى مواقع كثيرة وبدأت المعارك الكلامية ، فشهدت الساحة جدلا كبيراً بين الشيعة والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة . .

وتدخل الفكر الوافد الفلسفى والصوفى ليولد فى الأمة مذاهب هدامة وليشد من أزر الغلاة والزنادقة والملاحدة . .

وقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه مقدمة لحديث جبريل المشهور عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر .

فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبى ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى ، فقلت :

أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون[1] العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف[2] . . .

---

(١) تقفر العلم — بتقديم القاف على الفاء أو بالعكس — معناه طلب العلم والبحث عن غامضه واستخراج خفيه .

(٢) أى مستأنف ، لم يسبق به علم من الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه .

قال ابن عمر : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم برآء منى ، والذى يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر . . . ثم ساق حديث جبريل . . . »

وقامت السلطة السياسية لنصرة مذهب على مذهب حماية للدولة وليس ولاء لله . .

وعلى سبيل المثال فإن أول من قال بخلق القرآن الجعد بن درهم ، فقتله خالد بن عبد الله القسرى يوم عيد الأضحى بالكوفة عام أربعة وعشرين ومائة ، خطب الناس فقال :

أيها الناس ضحوا ، تقبل الله ضحايا كم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . .

ثم نزل فذبحه فى أصل المنبر . . . ! !

وشاء الله أن يقتل خالد بن عبد الله القسرى شر قتلة ، قتله يوسف ابن عمر ، فبتر قدميه ثم ساقيه ثم فخذيه ثم صدره ، فمات ولا يتكلم كلمة واحدة ولا تأوه حتى خرجت روحه(١) .

وتدور الأيام دورتها وجاء الخليفة العباسى المأمون فاعتنق مذهب الاعتزال وحمل الناس على القول بخلق القرآن وأرسل عام ٢١٨ هـ كتابا إلى والى بغداد إسحق بن إبراهيم بن مصعب يطلب منه امتحان القضاة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق محمد عبدالعزيز النجار ج ٩ ص ٣٩٤ ، ج ١٠ ص ٢٠ ط مطبعة السعادة .

والمحدثين في مسألة القرآن، كما أمره أن يأخذ على القضاة عهداً أن لا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن ..

ولقد تحمل الإمام أحمد بن حنبل عناء شديدا وبلاء كبيرا في مواجهة هذا التعصب السياسي على عهد المأمون والمعتصم والواثق إلى أن جاء الخليفة العباسي المتوكل فترك القول بخلق القرآن وأطلق سراح أحمد ابن حنبل ..

ولقد اشتهر الحديث عن العقائد في هذه المرحلة باسم علم الكلام وتبنته فرق المبتدعة المخالفين لأهل الحديث والسلف، ولهذا ورد الذم لعلم الكلام على ألسنة أئمة السلف، فقال أبو يوسف لبشر المريسي المعتزلي: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأسا في الكلام قيل: زنديق أو رمي بالزندقة ..

وقال الشافعي رحمه الله تعالى :

حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام ..

وتعددت كتب الأئمة في الرد على هؤلاء، مثل :

- كتاب الرد على الزنادقة والجهمية .

  للإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ

- وكتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل.

  للإمام البخاري ت ٢٥٦ هـ

- وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ..

للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ .

- وكتاب الرد على الجهمية
- وكتاب الرد على المريسى

وكلاهما للإمام أبى عثمان الدارمى ت ٢٨٠ هـ

وهذه الكتب مجموعة فى مجلد واحد يسمى : عقائد السلف[1] .

وإن كان البعض يشكك فى نسبة الكتاب الأول إلى الإمام أحمد ، وقال الذهبي فى سير أعلام النبلاء : إنه موضوع عليه .

---

(١) تحقيق د . على سامى النشار وعمار جمعة الطالبى ط منشأة المعارف بالإسكندرية .

٤ — مرحلة الصراع الفكرى :

تمزقت الخلافة الإسلامية منذ العصر العباسى الثانى (٢٣٢ هـ) إلى دول متعددة ، كالدولة الصفارية والسامانية فى خراسان وما وراء النهر ، والدولة الحمدانية فى الموصل وحلب ، والطولونية والإخشيدية فى مصر ، والفاطمية فى المغرب ، والأغالبة فى تونس ، والأدارسة فى مراكش ، والأموية فى الأندلس .

وقد قامت بعض هذه الدول منذ عهد مبكر أثناء الخلافة الأموية فى دمشق وأثناء العصر العباسى الأول . .

وتعدد هذه الدول أدى إلى تعدد الاتجاهات المذهبية والفكرية ، فكان منها الشيعة والسنة ، ومنها المعتزلة والخوارج ، واحتضن الخلفاء والأمراء أئمة هذه المذاهب ، وقامت حركة تأليف واسعة فى شتى فنون الفكر واتسع الجدل بين العلماء بعيداً عن ساحة الحكام ، وقام علم الكلام جديداً فى منهجه ، فقد تسلح بسلاح خصومه فى المنطق ، ودرس الفلسفة وجمع الشبهات ، وساق الأدلة العقلية على النمط المنطقى ليؤيد قضايا العقيدة وينتصر للدين ويدفع فتن الزنادقة والملحدين . .

فكان أبو الحسن الأشعرى (ت ٣٣٠ هـ)[1] فاتحة هذا العهد بعد أن ترك مذهب الاعتزال الذى ظل عليه أربعين عاماً فى حضن زوج أمه

---

(١) هناك خلاف فى سنة وفاة الأشعرى فقبل سنة ٣٣٠هـ ، أو ٣٢٤هـ ، أو نيف وثلاثين وثلاثمائة .

أبي على الجبائي شيخ المعتزلة فى عصره ، وتحوله إلى مذهب السلف ، فرقى كرسيا فى المسجد الجامع فى البصرة ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لاتراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم . . »[1] .

واستشق الأشعرى سلاح المعتزلة الجدلى ، ونصر به مذهب السلف ، ونحا بعلم الكلام منحى جديدا وقال مستحسنا الخوض فى علم الكلام : « إن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس مالهم ، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين ، ومالوا إلى التخفيف والتقليد ، وطعنوا على من فتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال ..

وزعموا أن الكلام فى الحركة والسكون، والجسم والعرض ، والألوان والأكوان ، والجزء والطفرة ، وصفات البارى عز وجل — بدعة ، وقالوا لو كان ذلك هدى ورشادا لتكلم فيه النبي ﷺ وخلفاؤه وأصحابه..

قال أبو الحسن :

والنبي ﷺ لم يقل أيضا إنه من بحث عن ذلك وتكلم فيه فاجعلوه مبتدعا ضالا .. ثم إن النبي ﷺ لم يجهل شيئاً مما ذكرتموه من الكلام فى الجسم والعرض والحركة والسكون والجزء والطفرة ، وإن لم يتكلم فى كل واحد من ذلك معينا ، وكذلك الفقهاء من الصحابة ..

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد ص ٤٤٦ ﺟ ٢ ط مكتبة النهضة المصرية .

غير أن هذه الأشياء التي ذكرتموها معينة، أصولها موجودة في القرآن والسنة، بجملة غير مفصلة ..

وأما الكلام في أصول التوحيد فمأخوذ أيضاً من القرآن الكريم، قال تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »، وهذا كلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له ..

ونحتج على من قال إن الله تعالى وتقدس يشبه المخلوقات وإنه جسم، بأن نقول له :

لو كان يشبه شيئاً من الأشياء لكان لا يخلو من أن يكون يشبهه من كل جهاته أو من بعض جهاته ..

فإن كان يشبهه من كل جهاته وجب أن يكون محدثاً من كل جهاته، وإن كان يشبهه من بعض جهاته وجب أن يكون محدثاً مثله من حيث أشبهه، لأن كل مشتبهين فحكمها واحد فيما اشتبها له ..

ويستحيل أن يكون المحدث قديماً والقديم محدثاً .. قال تعالى وتقدس « ليس كمثله شيء » ...

ثم ذكر الأشعري مسائل الفروع في الفقه وقال إن مرد هذه إلى السمع وإلى الرسل، أما ما يتعلق بالأصول فقال :

ينبغي لكل عاقل مسلم أن يرد حكمها إلى جملة الأصول المتفق عليها بالعقل والحس والبديهة، لأن حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع أن تكون مردودة إلى أصول الشرع الذي طريقه السمع ..

وحكم مسائل العقليات والمحسوسات أن يرد كل شيء من ذلك إلى بابه، ولا تخلط العقليات بالسمعيات، ولا السمعيات بالعقليات ..

فلو حدث فى أيام النبى صلى الله عليه وآله وسلم - الكلام فى خلق القرآن وفى الجزء والطفرة بهذه الألفاظ لتكلم فيه وبينه كما بين سائر ما حدث فى أيامه من تعيين المسائل والتكلم فيها . .

فإن قال قائل : فأنا أتوقف فى ذلك فلا أقول مخلوق ولا غير مخلوق ، قيل له :

فأنت فى توقفك فى ذلك مبتدع ضال ، لأن النبى ﷺ لم يقل إن حدثت هذه الحادثة بعدى توقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئاً »(١) .

وتوالى أئمة أعلام على هذا الضرب مثل أبى بكر الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) وأبى المعالى الجوينى (ت ٤٧٨ هـ) وأبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) واختلط علم الكلام بالفلسفة ، وسبقت قضاياه فلسفية البدء ، عقلية المنهج ، قرآنية النتيجة ..

فلكى يصلوا إلى عقيدة إيمانية مهدوا لها تمهيدات بعيدة وناقشوا قضايا دخيلة ، وتعرضوا لأمور لها عمقها الفلسفى والخيالى ..

وعلى سبيل المثال فإن كتاب العقائد النسفية لعمر بن محمد النسفى (ت ٥٣٧ هـ) بدأ بهذه العبارة :

قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسوفسطائيين ..

---

(١) نقلا عن كتاب تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون تأليف عمر فروخ ص ٣٣٥ ط دار العلم للملايين سنة ١٩٨٣ م

ثم قسم أسباب العلم إلى ثلاثة هي :

الحواس السليمة والخبر الصادق والعقل ..

وبعد شرح هذه الأسباب انتقل إلى قضية حدوث العالم فقال : والعالم بجميع أجزائه محدث ، إذ هو أعيان وأعراض . .

فالأعيان ماله قيام بذاته ..

وهو إما مركب وهو الجسم ..

أو غير مركب كالجوهر ، وهو الجزء الذى لا يتجزأ ..

والعرض ما لا يقوم بذاته ، ويحـــدث فى الأجسام والجواهر ، كالألوان والأكوان والطعوم والروائح ....

والمحدث للعالم هو الله تعالى الواحد القديم الحى القادر العليم السميع البصير ...»[1] .

وقد عرف ابن خلدون ت ٨٠٨ هـ علم الكلام بأنه :

علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ..

وقال فى موضع الآخر :

فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية ، فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقائد[2] . .

---

(١) متن العقائد النسفية ضمن كتاب مجموع مهات المتون ، ص ١٩ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة ١٩٩٤ م .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٣ . ص ٣٦٩ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت .

ولقد حمل ابن تيمية ت ٧٢٨ هـ حملة شعواء على المتكلمين واتهمهم بالبعد عن طريقة الكتاب والسنة .

والمتأمل لفكر ابن تيمية يجد أنه لم يفعل أكثر مما فعل علماء الكلام أنفسهم، فلقد رد ودافع بنفس أسلوب ومنهج المتكلمين والفلاسفة، وأعاد لنا موقف الإمام أبي حامد الغزالي من الفلاسفة وفرق الزيغ .

ولما جاء ابن أبي العز الدمشقي ت ٧٩٢ هـ ليشرح العقيدة الطحاوية قال :

وشرح هذه العقيـــدة غير واحد من العلماء ولكن رأيت بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم واستمد منهم وتكلم بعباراتهم . .

ثم قال :

وقد أحببت أن أشرحها سالكا طريق السلف في عباراتهم ، وأنسج على منوالهم ، متطفلا عليهم لعلي أن أنتظم في سلكهم ، وأدخل في عدادهم، وأحشر في زمرتهم .. »[1] .

ومع ذلك فإنك إذا تصفحت شرح ابن أبي العز تجده لا يختلف عن منهج المتكلمين في شيء ..

فلقد تكلم عن الماهية وأحكام النقيض والضد ، والمطلق الكلي هل هو موجود في الأذهان أو الأعيان ، والواجب والممكن ، والنوع والجنس ، والدور والتسلسل بل إنه رجح — كشيخه ابن تيمية — تسلسل الحوادث في الماضي وقال :

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٣ ط المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ .

ومن المعلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارنا لفاعله لم يزل ولا يزال معه ـ ممتنع محال ، ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء ، فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء .. »(١) .

وتكلم ابن أبي العز عن واجب الوجود والممكن والعلاقة بينهما فقال :

فإن الموجودات لابد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعا للتسلسل(٢) ، فإنا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن ، وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ..

وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ، فإن الممتنع لا يوجد .

ولا واجبة بنفسها فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ..

فعدمها ينفي وجوبها(٣) ..

ووجودها ينفي امتناعها .

وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣٤ ط المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ .

(٢) لاحظ أن الشيخ هنا ينفي التسلسل وقد قبله هناك .

(٣) في النسخة المطبوعة « وجودها » وهو خطأ والصواب ما أثبتناه فإن قبول الشيء للوجود والعدم يدل على إمكانه وينفي وجوبه .

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون »[1]

• • •

إن الذين يهاجمون علم الكلام بمصطلحه الجديد إنما يستخدمون منهج علم الكلام ذاته ، فهم متكلمون رغم أنوفهم . .

وإن الذين يدافعون عن الإسلام في مواجهة العلمانيين وأهل الضلال إنما يقوم دفاعهم على منهج علم الكلام من حيث لا يشعرون . . ! !

وإذا كان الأقدمون عايشوا عصرهم وتغلبوا على خصومهم بسلاح أعدائهم فإن المحدثين لن ينجحوا إلا باستخدام سلاح العلم الحديث، وملاحقة التطور السريع لبحوث الفضاء والهندسة الوراثية والاستنساخ .

فإن لكل زمن قضاياه ولكل عصر شئونه ، ويبقى موضوع علم الكلام واحدا على مدى العصور وهو الدفاع عن عقائد الإيمان بالأدلة العقلية المتاحة لكل جيل .

وهذه الأدلة متضمنة في القرآن المجيد يعقلها العالمون على مدى تاريخ الحياة ، ولا تجتمع لجيل دون آخر ، ولا يستأثر بها سلف دون خلف ، وإنما تظل تتبدى مع عمق التأمل وفطنة العقل وصفاء الفطرة . . قال تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »[2] .

---

(١) سورة الطور — الآية ٣٥ وراجع ص ١١٣ من شرح الطحاوية .
(٢) سورة فصلت — الآية ٥٣

• — مرحلة العصر الحديث :

تبلور علم العقيدة الآن فى ثلاثة اتجاهات رئيسية هى :

— الاتجاه الأشعرى .

— الاتجاه السلفى .

— الاتجاه الاعتزالى .

* * *

الاتجاه الأشعرى :

يتبوأ الاتجاه الأشعرى مكان الصدارة فى معظم الجامعات والجمعيات الإسلامية ، وبخاصة فى الأزهر الشريف . .

ففى مراحل التعليم الأولى تقوم المناهج على منظومة الخريدة البهية فى العقائد التوحيدية لأبى البركات أحمد بن محمد الدردير المتوفى ١٢٠١ هـ .

وفى المرحلة الثانوية تعتمد المناهج على جوهرة التوحيد لبرهان الدين إبراهيم بن هارون اللقانى المتوفى ١٠٤١ هـ وشروحها وبخاصة شرح الشيخ الباجورى المتوفى ١٢٧٧ هـ .

وفى المرحلة الجامعية يدرس الطلاب كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد لأبى حامد الغزالى المتوفى ٥٠٥ هـ والمواقف لعضد الدين الإيجى المتوفى ٧٥٦هـ وشرحها للشريف الجرجانى المتوفى ٨١٦ هـ ، وشرح المقاصد لسعد الدين التفتازانى المتوفى ٧٩٢ هـ ، ويرجعون على كتب الرازى والآمدى .

والملاحظة الجديرة بالاعتبار أن هذه الدراسة الأزهرية لا تعرف التعصب ولا تلزم بالاعتقاد فى المذهب ، وتدع لعلماء الأزهر فرصة الاختيار الحر . .

وقد نجد من الأزهريين من هو اعتزالى المذهب ، بل إن أئمة كباراً تولوا مشيخة الأزهر أو كانوا فى مستواها نادوا بأفكار اعتزاليـــة ودافعوا عنها كالشيخ محمد عبده (ت١٣٢٣هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغى (ت ١٩٤٥ م) والشيخ محمود شلتوت (ت ١٩٦٣ م) ومن أئمة الأزهر الفلاسفة الشيخ مصطفى عبد الرازق (ت١٩٤٧م) وأنجب الأزهر أئمة فى التصوف منهم الدكتور عبد الحليم محمود(ت ١٩٧٨م) ، وحظى الاتجاه السلفى بعديد من علماء الأزهر نالحوا عنه وجاهدوا فى سبيله منهم الشيخ محمد حامد الفقى (ت ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٩ م) الذى أسس جماعة أنصار السنة المحمدية لتتبنى الدعوة الوهابية ، وساعده الشيخ عبد الرزاق عفيق (ت ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م) وقد تولى منصبا رفيعاً فى الإفتاء السعودى ..

الاتجاه السلفى :

برز هذا الاتجاه أكثر وضوحا على أيدى الدعوة الوهابية التى قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى المتوفى ١٢٠٦ هـ بتحالفه مع البيت السعودى ..

ويعتمد الاتجاه السلفى على كتب الإمام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ وتلميذه ابن القيم ت ٧٥١هـ وتقوم مناهج علم العقيدة فى المملكة العربية السعودية على رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأهمها كتاب « التوحيد الذى هو حق الله على العبيد » وكتاب « مسائل الجاهلية » .

وكتابات الشيخ مختصرة وأكثر عباراته إشارات ..

ويعد كتاب شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الدمشقى أكثر كتب العقيدة انتشاراً بين طلاب العلم فى الجامعات السعودية بالإضافة إلى الواسطية والتدمرية والحموية لابن تيمية ، ويقوم العلماء المحدثون بمحاولة

تأصيل هذا الاتجاه والدفاع عنه فظهرت كتب ورسائل صغيرة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز والشيـــخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ صالح بن فوزان الفوزان ..

وهى كلها تدور حول الأسماء والصفات ، والتحذير من الشرك ، ومفهوم العبادة لله ...

والملاحظ أن هذا الاتجاه السلفى يحمل بعض العنف ويثير نوع تطرف ، فهم لايتسامحون مع أى اتجاه مخالف ، ويطلقون ألسنتهم بالسوء على كل من عداهم ..

فلا فرق عندهم بين الأشعرى والشيعى والشيوعى ..

ولا بين الصوفى والوثنى ..

ولا بين المعتزلى والمجوسى ..

وأكثر الألفاظ استخداما لديهم ونطقا بها هى ألفـــاظ التكفير والتفسيق والتبديع ..

الاتجاه الاعتزالى :

معظم أقسام الفلسفة فى الجامعات المدنية تتبنى الاتجاه الاعتزالى ، كما يدافع عنه كثير من تلاميذ المستشرقين الذين درسوا فى جامعات أوربا..

ومن جهة أخرى فإن هناك صلة قوية بين الاعتزال والتشيع قديماً وحديثاً ، فقد نشأ واصل بن عطاء مؤسس فرقة المعتزلة فى بيت محمد بن الحنفية وأخذ عنه العلم ..

وتتلمذ زيد بن على زين العابدين بن الحسين على يدى واصل بن عطاء واقتبس منه أصول الاعتزال ..

والتقى الزيدية مع المعتزلة فى مواجهة الأمويين والعباسيين ..

ولا تزال كتب الشيعة والمعتزلة تشترك فى قضايا عقدية كثيرة مثل التوحيد والعدل والقضاء والقدر ..

ومن أعجب الأمور أن كلا من الاتجاه السنى والشيعى والاعتزالى يتخذ من الإمام على بن أبى طالب مبدأ له ..

فعبد القاهر البغدادى[1] ت ٤٢٩ هـ جعل أول المتكلمين من الصحابة على بن أبى طالب حيث ناظر الخوارج فى مسائل الوعد والوعيد، وناظر القدرية فى المشيئة والاستطاعة، وذكر المعتزلة[2] فى صدر طبقتهم الأولى الإمام على بن أبى طالب، وقام الفكر الشيعى كله انتصاراً للإمام على رضى الله عنه ..

* * *

كلمة أخيرة :

وأخيراً فإن لى كلمة أهمس بها فى اذن كل داعية ، واضعها أمام كل مسلم وهى :

إن لكل مجتهد نصيبا ، ويجب أن لا يعيب بعضنا على بعض فى إطار ضوابط الاجتهاد وحدود معالم الفكر الراشد ..

---

(١) فى كتابه « الفرق بين الفرق » تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد ط مكتبة صبيح .

(٢) راجع كتاب « فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة » تأليف أبى القاسم البلخى والقاضى عبد الجبار والحاكم الجشمى — تحقيق فؤاد سيد ط الدار التونسية للنشر سنة ١٣٩٣ هـ ١٩٧٤

وإذا كنت أيها العالم اجتهدت فوصلت إلى مذهب معين، أو رجحت اتجاها خاصاً فدع الآخرين يجتهدون مثلك ويرجحون ما تطمئن إليه نفوسهم ويستقر عليه تفكيرهم طالما جمعتنا كلمة « لا إله إلا الله، محمد رسول الله ».

وإلا فإنك متسلط تدعى العصمة لنفسك وتقذف بالغيب من مكان بعيد..

وتعجبنى كلمة للدكتور عبدالحليم محمود - رحمه الله - تؤكدها الأيام والتجارب، وأصبحتُ أكثر وعيا بها بعد أن كنت مترددا في قبولها، وهي: لاتزال تلك القوى الثلاث (النصيون والبصيريون والعقليون) تتصارع حتى عهدنا هذا، ونعتقد أنها ستستمر، ذلك أنها تمثل نزعات فطرية في بنى الإنسان..

فبعضهم واقعى يتجه إلى النص ولا يريد، أو لا يمكنه أن يسير إلى أبعد منه..

وبعضهم يحتفظ بشخصيته قوية جارفة لا تلين، فهو عقلى أو اعتزالى.

وبعضهم رقيق الشعور، مرهف الحس، ملائكى النزعة فهو بصيرى أو صوفى..

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة، وهذه الفطر ستستمر في بنى البشر مادام على وجه الأرض أفراد من النوع الإنسانى، ومن هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف أو الاعتزال أو النصيين، على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات قضاء تاما »[1].

---

(١) المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٧٣ ط، دار الكتب الحديثة سنة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

ولنعلم أن الجهد العقلى فيما وراء الطبيعة محدود وضامر، وأن المسألة أعمق من أن يحيط بها البشر إحاطة تامة ..

ولقد أدرك المخلصون من العلماء والراسخون من الأئمة أن العجز عن الإدراك إدراك، وأن النور الإلهى هو الذى يمنح الحقائق ثباتها ويقينها . .

ولهذا قال الإمام الرازى :

نهاية إقدام العقول عقال　　وغاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا　　وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا　　سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال الشهرستانى :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها　　وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر　　على ذقن أو قارعاً سن نادم

وقال أبو المعالى الجوينى عند موته :

ها أنا ذا أموت على عقيدة أمى !!

أو قال : على عقيدة عجائز أهل نيسابور[١] !!

وهذا يدفعنا إلى أن يترفق كل منا بالآخر، ويلتمس له الأعذار، ونذع للحوار موضعا ..

وإن الخطر الذى يتهدد العقيدة الإسلامية اليوم ليس من داخل الفرق

---

(١) راجع شرح الفقه الأكبر للملاعلى القارى ص١١ط دار الكتب العلمية — بيروت .

الإسلامية وإنما من التيارات الواحفة والمذاهب الهدامة الوافدة التى تسرى مع الهواء وتتشكل حسب الظروف والأحوال ..

ويتمثل ذلك فى الثالوث الحديث :

— الخطر الصهيونى .

— الفكر المادى .

— اليسار الإسلامى المزعوم .

وهذا الثالوث أفرخ الانحلال الخلقى وعبادة الشيطان ..

فما أحوج المسلمين إلى الاعتصام بحبل الله والاجتهاد المستنير تأصيلا للعقيدة ، واستمساكا بالوحى ،وعروجا فى سلم الحضارة ، وقيادة للبشرية إلى مشرق الحق .. ومطلع النور .. وشاطىء الأمان ..

المبحث الثالث

الإسلام وتقرير العقائد

- الدعوة العقلية .
- أصول التفكير .
- المعرفة والتقليد .
- مصادر العقيدة .
- الحكم وأنواعه .

المعجزة العقلية

يتفرد سيدنا محمد ﷺ من بين سائر الانبياء بأن معجزته كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحمل دليله معه وينادى صباح مساء:

« وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين »(١).

لقد كان لكل نبي معجزة تتناسب وعصره الذى عاش فيه، فموسى عليه السلام بعث فى قوم انتشر فيهم السحر، فكانت معجزته أن انقلبت عصاه حية تسعى « فإذا هى تلقف ما يأفكون » فأدرك سحرة فرعون الفرق بين فعل الخلق وفعل الخالق « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ».

وأرسل عيسى عليه السلام إلى قوم برعوا فى الطب واشتهروا به فكانت معجزته شيئا يفوق طورهم ويعلو مقدرتهم.

قال الله تعالى:

« ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قدجئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين »(٢).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣
(٢) « آل عمران الآية ٤٩

ثم كانت أمة العرب، ولها شأنها فى الغلب بالقول، والبيان فى الحجة، والسبق إلى امتلاك المشاعر والتأثير الوجدانى، فبعث محمد ﷺ من تلك البيئة ومعه القرآن المجيد فسجدوا له قبل أن يؤمنوا لسمو بلاغته وعظم معانيه، وتروى كتب السيرة أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا فى قومه قال يوما وهو جالس فى نادى قريش:

يامعشر قريش ألا أقوم فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون.

فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم اليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا ابن أخى إنك منا حيث علمت من البسطة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال الرسول: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا[1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

---

(١) الرئى ـ بفتح الراء وكسرها ـ ما يتراءى للإنسان من الجن.

فلما فرغ عتبة من عرضه قال له الرسول الكريم : فاستمع منى ثم قرأ :

«بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين» .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرأها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما حتى انتهى الرسول إلى السجدة منها فسجد ثم قال :

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

وفى رواية فلما بلغ قوله تعالى «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» .

قال عتبة : حسبك حسبك، وأمسك على فيه وناشده بالرحم ، ثم رجع إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس ، قالوا ما وراءك ، قال :

ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . .

قال : هذا رأيي فيه فأصنعوا ما بدا لكم ... [1] .

هذا وحيث كانت رسالة الإسلام خاتمة لطاف الرسالات الإلهية ، وعامة لجميع الأزمنة والأمكنة ، وخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها — فقد ارتكزت على التفكير العلمي وأشادت بالعقل إذ هو أعدل الأشياء قسمة بين البشر ، ولقد بدىء القرآن بتلك الإشراقة الأولى للوحي في قوله سبحانه « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

هذه الإشراقة الأولى أرشدت إلى بداية الطريق العلمي وهو الأمر بالقراءة والكتابة في قوله « اقرأ » فإن القراءة تستلزم مقروءا أى مكتوبا .

ثم بينت القانون العام الذى يحكم الطريق وهو أن يسلك باسم الله واهب الملك والملكوت ، ثم ألحت إلى أن يكون العلم بحثا عن حقائق الأشياء ، ورمزت لذلك بالعلق الذى هو أحد أطوار الجنين في رحم أمه ، وبقوله « ما لم يعلم » من مكنونات نواميس الأرض والسماء .

وحين اشتد عناد المشركين للدعوة الإسلامية نزل القرآن يقول : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » [2] .

وحول هذه الآية الكريمة يقول الإمام الزمخشري :

والمعنى إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق، وهى أن تقوموا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ صـ ٢٩٣ ط البابي الحلبي سنة ١٩٥٥م

(٢) سبأ ٤٦

لوجه الله خالصا متفرقين اثنين اثنين، وواحدا واحدا، ثم تتفكروا فى أمر محمد ﷺ وما جاء به، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع هوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه.

وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنـــده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم.

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمى البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب.

وأراهم بقوله «مابصاحبكم من جنة» أن هذا الأمر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة جميعا لا يتصدى لادعاء مثله إلا رجلان:

إما مجنون لا يبالى بافتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز بل لا يدرى ما الافتضاح وما رقبة العواقب.

وإما عاقل راجح العقل، مرشح للنبوة، مختار من أهل الدنيا لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه، وإلا فما يجدى على العاقل دعوى شىء لا بينة له عليه.

وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به جنة بل علمتوه أرجح قريش عقلا، وأوزنهم علما، وأثقبهم ذهنا، وآصلهم رأيا، وأصدقهم قولا، وأنزههم نفسا، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به.[1] اهـ.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٩٤

ولعل هذا الفرق بين المعجزة العقلية لسيدنا محمد ﷺ والمعجزات الحسية لباقى الأنبياء هو ما أشار إليه المصطفى الكريم عندما قال - كما فى الحديث المتفق عليه — ما من الأنبياء من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ».

أصول التفكير

من هذا المنطلق أرسى القرآن قواعد البحث وأصول التفكير على النحو التالي :

١ — حرر العقل من رواسب التقليد وعادات البيئة فقال « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »[١] .

٢ — نعى على أتباع الظن والهوى والاسترسال مع الباطل ، فقال « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »[٢] .

٣ — أرشد إلى العناية بحواس الإنسان والحفاظ على سلامة استخدامها ، فقال « ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »[٣] .

٤ — أمر بالبحث فى ظواهر الطبيعة ونواميس الكون فقال :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »[٤] .

٥ — لفت النظر إلى قوانين الاجتماع وسنة الله فيما خلف من الأمم

---

(١) الزخرف ٢٣ (٢) النجم ٢٨
(٣) الإسراء ٣٦ (٤) البقرة ٦٤

وأكد استمرارها، فقال « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »[1] .

وحرصا على هذه الأصول قرر القرآن عقائد الإيمان كلها مدعمة بالحجة والبرهان ، وليس به قضية بلا دليل أو دعوى بلا بينة ، حتى فى باب الأدب الخلقى فقال « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[2] .

والشعار الذى رفعه القرآن فى حجاجه مع المخالفين هو :

« قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا »[3] .

« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[4] .

إن القرآن المجيد قد أحصى الجدال الذى دار على عهد النبوة إحصاء دقيقاً ، وفصل الشبهات تفصيلا كاملا فى الألوهية والوحدانية ، والنبوة والرسالة ، والبعث والنشور ، وأوردها بالدليل والبرهان ، وما على القارىء الكريم إلا أن يفتح المصحف الشريف حيث شاء ليجد صدق ما نقول .

وهذه نماذج لبعض عقائد المخالفين وكيف دفعها القرآن ، أسوقها — كما وردت — آيات بينات :

بالنسبة للدهريين الذين كذبوا بلقاء الآخرة وقالوا :

« هيهات هيهات لما توعدون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »[5] .

---

(١) آل عمران ١٣٧ — (٢) فصلت ٣٤
(٣) الأنعام ١٤٨ — (٤) النمل ٦٤
(٥) المؤمنون ٣٦

الرد :

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »(١) .

وبالنسبة للمشركين القائلين :

« أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب »(٢) .

الرد :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون »(٣) .

« وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون »(٤) .

وبالنسبة للنصارى القائلين :

« إن الله هو المسيح ابن مريم »(٥) .

« إن الله ثالث ثلاثة »(٦) .

---

(١) الحج الآية ٥ (٢) ص الآية ٥
(٣) الأنبياء الآية ٢٢ (٤) المؤمنون الآية ٩١
(٥) المائدة الآية ٧٢ (٦) المائدة الآية ٧٣

الرد :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون »[1] .

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم »[2] .

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩

(٢) سورة المائدة الآية ٧٥

المعرفة والتقليد

تأسيسا على القواعد السابقة اتفقت كلمة جمهور المسلمين على أن عقائد الإسلام فى الألوهية والنبوة يجب العلم بها والبحث فيها ببرهان ودليل قاطع للوصول إلى اعتقاد جازم مطابق للواقع .

ولما كانت الأدلة التفصيلية ورد الشبهات لا تتيسر لكافة الناس قالوا إن المعرفة الإجمالية واجبة على كل مكلف بمعنى أن يسأل المرء عن دليله على وجود الله فيقول : هذا العالم أو خروج هذا النبات أو وجود الإنسان .

ويكتفى بذلك من غير بيان لدقائق الصنع وغرائب التدبير ، ومن غير مقدرة على دفع ما يثيره الخصوم .

وإذا كان الإنسان أهلا للنظر والبحث العلمى وجب عليه تفصيلا معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل فى جانب الألوهية والرسالة .

وهناك بحث طويل بين علماء التوحيد عن أول واجب على المكلف .

وجملة الأقوال اثنا عشر حكاها الإمام الباجورى فى حاشيته هى :

أولها : ما قاله الأشعرى إمام هذا الفن أنه المعرفة .

ثانيها : ما قاله الأستاذ أبو إسحق الاسفراينى أنه النظر الموصل للمعرفة ويعزى للأشعرى أيضا .

وثالثها : ما قاله القاضى الباقلانى أنه أول النظر أى المقدمة الأولى منه نحو قولك « العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث » فمجموع المقدمتين هو النظر ، والمقدمة الأولى هى أول النظر .

رابعها : ما قاله إمام الحرمين أنه القصد إلى النظر أى تفريغ القلب عن الشواغل . وعزى للقاضى أيضا .

خامسها : ما قاله بعضهم أنه التقليد[١] .

سادسها : أنه النطق بالشهادتين .

سابعها : ما قاله أبو هاشم فى طائفة من المعتزلة وغيرهم أنه الشك .

ورد بأنه مطلوب زواله لأن الشك فى شىء من العقائد كفر فلا يكون مطلوبا حصوله .

ولعلهم أرادوا ترديد الفكر فيئول إلى النظر .

ثامنها : أنه الإيمان .

تاسعها : أنه الإسلام .

وهذان القولان متقاربان ، مردودان باحتياج كل من الإيمان والإسلام للمعرفة .

عاشرها : اعتقاد وجوب النظر .

حادى عشر : أنه وظيفة الوقت كصلاة ضاق وقتها فتقدم[٢] .

---

(١) ليس معناه الاكتفاء بالتقليد بل هو يبدأ مقلداً للحق ثم يتحتم عليه معرفة الدليل ، فالخلاف هنا فى أول واجب فقط .

(٢) فقد يكون النظر أو النطق أو المعرفة حسب طبيعة الموقف ، فمن يريد أن يعصم نفسه وماله فالنطق مقدم ، ومن يريد أن يختار دينا فالنظر مقدم ، ومن ارتضى دينا فالمعرفة مقدمة لأنها الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل . وهكذا كمن أخر أداء صلاة الظهر مثلا حتى قارب وقت العصر ، فأول واجب عليه هو أداء صلاة الظهر ، وهى مقدمة على التى مضى وقتها .

ثاني عشر : أنه المعرفة أو التقليد أي أحدهما لا بعينه ، فيكون مخيراً بينهما .

ثم قال الإمام الباجوري : « والأصح أن أول واجب مقصداً المعرفة، وأول واجب وسيلة قريبة النظر ، ووسيلة بعيدة القصد إلى النظر ، وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة » .

هذا وقد أجمع العلماء على نقصان إيمان المقلد الذي يؤمن إيمانا جازما بالحق في الإله والنبي دون معرفة دليـــل تفصيلي ولا إجمالي ، لأن القرآن يقول : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[1] .

وغالى بعضهم فزعم أنه لا نجاة معه وأن المقلد كافر لأن المعرفـــة واجبة وجوب الأصول،وأن الأمر القرآني صريح بالعلم وليس بالإيمان وحده ،قال تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله »[2] .

وقد يتساءل إنسان ويقول :

دع عنك هذا التشدد ، ولسنا في حاجة إلى كل هذه التعقيدات فإن دين الله يسر ، وغاية جهدنا أن نصل إلى إيمـان لإيمان العوام ، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ مقلدين لا شأن لهم بدليل أو برهان، وما علم الرسول أحداً دليلا على وجود الله .

وأقول : رويدك يا أخي . . !!

إن الأعرابي في باديته لا يضارعه الآن من يحمل أعلى الشهادات في اللغة والأدب ، هذا الأعرابي قال في جاهليته : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج،ألا يدل ذلك على العليم الخبير .

---

(١) سورة الزمر الآية ٩ (٢) سورة محمد الآية ١٩

كذلك سجد هذا الأعرابي للقرآن المجيد قبل أن يؤمن ، وعرف أسراره البلاغية وإعجازه البياني .

هذا العقل الفطرى تلق هدايات القرآن فآمن بها عن اقتناع ، فهذا الأمين محمد ما عرف عنه كذب ، وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ، وهذه الكواكب الساهرة لابد لها من مكوكب ، والدين الذى جاء به محمد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، كما قال جعفر بن أبي طالب لنجاشى الحبشة :

أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الرحم ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله — عز وجل — لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان،وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا — وأخذ يعدد أمور الإسلام — فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ... »[١] .

هكذا تكلم جعفر بن أبي طالب فى صدر الإسلام يوم هاجر المسلمون إلى الحبشة ، ولا أظن إنسانا أسلم أمام المصطفى الكريم ﷺ إلا وتمثل هذه المعانى كلها .

إن الإسلام يوم دعا الناس فى مكة إلى عقائده لم يكن لديه مغريات مادية ، فالحق وحده له سناؤه وصولته ، بل لقد رفض منطق المساومة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ — ٣٣٦

وتخطى موقف الترغيب المادى السخى، وانحنى التاريخ وهو يستمع لسيدنا محمد ﷺ قائلا : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وحين حاولت أم سعد بن أبى وقاص صرف فـلذة كبدها عن هذا الدين الجديد وأضربت عن الطعام والشراب كى تموت صبراً ، ويعير بها ولدها إن لم يرجـع ، قال لها بلسان المؤمن على بصيرة : والله يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا ، فكلى أو لا تأكلى .

ولقد ذاق المسلمون ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، إبتداء من التعذيب الفردى، إلى الحصار الاقتصادى لجماعة المؤمنين مدة ثلاث سنين فى شعب بالجبل أكلوا خلالها أوراق الأشجار ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا بل صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فهل كان ذلك كله ناشئاً عن تقليد أعمى وانسياق مجرد وارتجال ساذج ؟!

سبحانك هذا بهتان عظيم .

لقد رفض القرآن منطق الإكراه فى الدين فالإكراه لايغير ما استقر عليه القلب من إيمان أو كفر، فمن أكره على الإيمان فهو كافر، ومن أكره على الكفر فهو مؤمن ، قال الله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم »[1] .

وكذلك رفض القرآن إيمان الإلجاء والاضطرار دون وعى وبصيرة وذلك عندما تعنت المشركون وألغوا عقولهم :

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٦

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا،أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه»(١) .

وفى رفض منطق الإلجاء يعلل القرآن المجيد هذا الرفض بعدة أمور منها :

أولا : أن النبوة فى حقيقتها اصطفاء من الله و تكليف لعبده فى تبليغ رسالات الله وليس له من الأمر شيء وأن الله هو وحده الذى بيده تصريف الأمور ،وإلى هذا يشير قوله تعالى : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا »(٢) .

ثانياً : أن الرسالة الخاتمة التى بعث بها سيدنا محمد ﷺ تخاطب العقل الراشد الذى تمرس على مدى الأجيال ، ووعى عبرة القرون والتاريخ ، وفى ذلك يقول القرآن : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً »(٣) .

ثالثاً : أن الإيمان المعتبر شرعاً هو الإيمان الاختيارى القائم على الحجة وليس إيمان الدهشة أو الاستهواء .

ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين،إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »(٤) .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٩٠ (٢) سورة الإسراء الآية ٩٣
(٣) سورة الإسراء الآية ٥٩ (٤) سورة الشعراء الآية ٣

وممـا لاشك فيه أن الصحابة جميعاً تلقوا القرآن من فم رسول الله ﷺ وعقلوه ، وأدركوا مقاصده وهم الذين شاهدوا النبـــوة فى لألائها وعاينوا المعجزات وسايروا الوحى فى تشريعه، ولمسوا الحقيقة عن قرب، ولذلك كانوا خير القرون !

يقول ابن العربى — كما نقله فى العقيدة الصغرى للسنوسى :

اعلموا — علمكم الله — أن هذا العلم المكلف به لايحصل ضرورة[1] ولا إلهاما[2]، ولايصح التقليد فيه[3] ، ولايجوز أن يكون الخبر[4] طريقاً إليه ، وإنما الطريق إليه النظر ، ورسمه[5] أنه الفكر المرتب فى النفس ، على طريق يفضى إلى العلم أو الظن ، يطلب به من قام به علماً فى العلميات[6] أو غلبة ظن فى المظنونات[7] .

ولو كان هذا العلم يحصل ضرورة لأدرك ذلك جميع العقلاء ، أوإلهاما لوضع الله تعالى ذلك فى قلب كل حى ليتحقق به التكليف ، وأيضاً فإن الإلهام نوع ضرورة وقد أبطلنا الضرورة[8] .

---

(١) بلا نظر واستدلال .
(٢) الإلهام إلقاء الله شيئا من الخير فى القلب بطريق الفيض .
(٣) التقليد الأخذ بقول الغير بلا معرفة للدليل .
(٤) الخبر هو النص الشرعى من الكتاب والسنة والمراد ما عدا السمعيات التى طريقها التلقى عن المعصوم مما لامجال للاجتهاد فيه .
(٥) رسمه أى رسم النظر وتعريفه .
(٦) العلميات أى العقائد .
(٧) المظنونات مسائل الفروع الفقهية .
(٨) فى قوله : « ولو كان هذا العلم يحصل ضرورة لأدرك ذلك جميع العقلاء» .

ولا يصح أن يقال إنه تعالى يعلم بالتقليد - كما قال جماعة من المبتدعة - لأنه لو عرف بالتقليد لما كان قول واحد من المقلدين[1] ، أولى بالاتباع والانقياد إليه من الآخر ، كيف وأقوالهم متضادة ومختلفة .

ولا يجوز أيضاً أن يقال إنه يعلم بالخبر لأن من لم يعلم الله تعالى كيف يعلم أن الخبر خبره .

فثبت أن طريقه النظر ، وهو أول واجب على المكلف ، إذ المعرفة أول الواجبات ولا تحصل إلا به ، فبضرورة تقدمه عليها تثبت له صفة الوجوب قبلها ، وإيجاب المعرفة بالله معلوم من دين الأمة ضرورة .. اهـ[2] .

---

(١) المقلدين بفتح الدال — اسم مفعول .

(٢) حاشية على شرح أم البراهين ، تأليف محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ وبهامشه شرح أم البراهين لمحمد بن يوسف السنوسي الحسني ص ٥٨ مطبعة الحلبي سنة ١٣٥٨ = ١٩٣٩ .

مصادر العقيدة

العقيدة هي التى تتعلق بقضايا الوجود الكبرى فى الذات الإلهية والنبوة والبعث، والتى يتوقف عليها الإيمان والكفر، فمن أيقن بها وصدق وأذعن فهو المؤمن ومن أنكر وكذب وارتاب فهو الكافر..

هذه العقيدة يحكمها العقل ويصحح مسارها الوحى ممثلا فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة..

العقل:

إن العقيدة — فى المقام الأول — عقل، وما لم تكن عقلا فليست بدين صحيح، والذين يطمسون معالم العقل فى العقيدة إنما يفتحون أبوابا للشيطان، تسوقهم إلى الوثنيات والخرافات والكهنوت الأسود والطلاسم العمياء..

فالعقل هو مناط التكليف الشرعى، وإذا سلب الله ما وهب من العقل سقط ما وجب من الشرع، ولا دين لمن لا عقل له.. إن العقل وحده هو الذى يثبت وجود الله تعالى وكماله اللائق بذاته المقدسة.

وإن العقل وحده هو الذى يثبت الوحى والاصطفاء للأنبياء بدلالة المعجزة، فما لم تكن معجزة يقر بها العقل فلا نبوة..

والذين يجعلون الأخلاق العظيمة والأحوال الشريفة للأنبياء بديلا عن منطق العقل واهمون. فليس كل صاحب خلق يكون نبيا.. وإن العقل هو الذى يقدم دليل الجواز والإمكان لما وراء الطبيعة من أمور البعث، ولو كانت منافية لمقتضى العقول ما كلف الله بها البشر، ولما قبلها العقل..

القرآن :

نحن لا نألّه العقل ولا نمنحه أكثر مما هيأه الله له ، بل نضعه في موضعه الصحيح ، ولا نقول إن العقل يستقل بالعقيدة كلها بل يحتاج إلى نور الوحي ممثلا في القرآن الكريم ليقدم للإنسان الصورة الصحيحة للوجود الإلهي الأعلى وأسماء الله الحسنى وصفاته المقدسة ، وليرشده إلى المنهج في عبادة الحق ومعاملة الخلق . .

وليفصح له عن المستقبل والمصير الإنساني في البعث والحشر والحساب والجزاء . .

وليقص القصص الحق عن تاريخ الأنبياء وأصول رسالاتهم ومناهج دعوتهم . .

والقرآن قطعي الثبوت متواتر ، محفوظ بعناية الله جيلا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تحقيقا للوعد الإلهي « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

لكن معاني القرآن قد تكون قطعية وقد تكون ظنية ، فما كان قطعي الدلالة فهو عقيدة يترتب عليها الإيمان والكفر ، مثل قوله تعالى « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » وما كان ظني الدلالة فليس بعقيدة حتمية بل يجوز حولها الاجتهاد وذلك كالصفات الخبرية التي جاءت في آيات التنزيل الحكيم مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى »(٢) وقوله جل شأنه « فإنك بأعيننا »(٣) ..

---

(١) سورة الحجر — الآية ٩
(٢) « طه — الآية ٥
(٣) « الطور — الآية ٤٨

فهذه الآيات وأمثالها وإن كانت قطعية الثبوت غير أن دلالتها ظنية .

السنة :

تعد السنة النبوية مصدرا من مصادر العقيدة إلا أن مرتبتها بعد القرآن المجيد ، لأن أغلبها أحاديث آحاد لم تبلغ مبلغ التواتر . .

وجمهور العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد القطع ولذا يجب العمل بها فى العبادات والمعاملات لأنه يكتفى فيها بالظن الغالب . .

أما العقائد فى الإلهيات والنبوات والسمعيات فلا يترتب على ما يثبت بالسنة إيمان أو كفر ، لأنها ظنية الثبوت حتى ولو كانت قطعية الدلالة . .

فإن تطرق الظن للثبوت أو الدلالة يرفع اليقين ، فلا يصبح الأمر الثابت بالظن عقيدة يتحتم الالتزام به ، وتصدر على أساس منه أحكام الإيمان والكفر . .

وقد نهى الله تعالى أشد النهى عن اتباع الظن فى العقائد فقال : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى »[1] .

وتوعد المولى سبحانه أصحاب العقائد الواهمة بالخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة فقال : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق »[2] .

---

(١) سورة النجم — الآية ٢٣

(٢) « الحج — الآية ٩٠٨

وينبغى العلم بأن التوقف فى قبول خبر الآحاد ليس ردا لحديث رسول الله ﷺ، وإنما هو توقف فى نسبته إلى الرسول الكريم.

وقد تعلمنا فى مصطلح الحديث أن معنى الحديث الصحيح هو ما اتصل سنده بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة، وليس مرادا به القطع واليقين بصدوره عن رسول الله ﷺ فقد يكذب الصدوق.. وأن معنى الحديث المردود هو ما لم يتصل سنده بالعدول الضابطين ... الخ وليس مرادا به القطع واليقين بعدم صدوره عن الرسول ﷺ فقد يصدق الكذوب[1] .. !!

ومن هنا فلا محل لقول القائل:

«والعاقل يعلم أن الرسول معصوم فى خبره عن الله تعالى، لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذى تلقيه علينا، والحكمة التى جئتنا بها قد تضمن كل منها أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحا فيما علمنا به صدقك. فنحن نعتقد موجب العقول الناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه، لا نتلقى منه هديا ولا علما..

لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول، ولم يرض منه الرسول بهذا.

بل يعلم أن هذا لو ساغ لما أمكن كل أحد أن يؤمن بشىء مما جاء به

---

(١) راجع تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى للإمام السيوطى، تحقيق د. عبد الوهاب عبد اللطيف جـ١ ص ٧٥ ط الثانية سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م دار الكتب الحديثة

الرسول ، إذ العقول متفاوتة ، والشبهات كثيرة ،والشياطين لا تزال تلقى الوساوس فى النفوس ، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا فى كل ما أخبر به الرسول وما أمر به »(١) .

هذا الكلام فيه مغالطة ، لأنه لا أحد يطعن فى عصمة الرسول ﷺ ولا فى صدق خبره وإلا ما كان مسلماً أصلا ، وإنما المسألة كلها فى إثبات الحديث ونسبته إلى الرسول . .

والظن ليس فى قول الرسول وإنما الظن فى نسبة القول إلى الرسول ، والفرق واضح وكبير . .

ثم إن افتعال معركة بين الشرع والعقل ليس فى دين الإسلام ، فلا تناقض بين الشرع والعقل ، وصدق الله حيث يقول « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً »(٢) .

وهناك مؤلفات كثيرة حول هذه القضية منها :

• فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ،لابن رشد (٥٢٠ — ٥٩٥ هـ) .

• درء تعارض العقل والنقل،لابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ) .

إن العلاقة بين الشرع والعقل علاقة متلازمة ، لا انفصال بينهما ، وإن الحقيقه لا تتراءى إلا بهما معاً . .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العــز الدمشقى ص ٢٢٠ ط المكتب الاسلامى سنة ١٣٩٩ هـ .

(٢) سورة النساء — الآية ٨٢ ، ونحن فى دراستنا العقدية قبلنا خبر الواحد تغليبا لحسن الظن ما لم يعارض قاطعاً عقلياً أو شرعياً ، ومقصودنا هو تضييق شقة الخلاف ، ومنع أحكام التكفير، ودعوة جميع الفرق إلى الحوار . .

وقد عبر عن ذلك الإمام أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) فقال :
بل الواجب المحتوم فى قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتماد على الصراط المستقيم ، فكلا طرفى قصد الأمور ذميم .

وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ، وينكر مناهج البحث والنظر ، أو يعلم أنه لامستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ ، وبرهان العقل هو الذى عرف به صدقه فيما أخبر ؟!

وكيف يهتدى للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر ، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر ؟!

فليت شعرى كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العى والحصر ، أولا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر ؟!

هيهات قد خاب على القطع والبتات ، وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات ..

فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والأذاء ، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق بأن طالب الاهتداء ، المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر — فى غمار الأغبياء ..

فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن ، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان ..

فالعقل مع الشرع نور على نور[1] ..

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص٢ ط مكتبة صبيح سنة ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢م .

أقوال السلف :

ما وراء القرآن والسنة فآراء بشرية لأشخاص غير معصومين ، يؤخذ منها ويرد عليها ، وقد تسمى أقوال السلف أو أقوال الصحابة أو أقوال التابعين . .

والذين يبنون عقائدهم على هذه الأقوال يحتاجون إلى تنبيه مهم ، فإن هذه الأقوال لم تخضع لمقاييس الضبط وأصول النقل وقواعد الإسناد التي خضع لها الحديث الشريف ، اللهم إلا ما ندر منها . .

ومع التسليم الجدلي بصحة الإسناد فإن هـــذه الأقوال قد تكون منقولة عن أحبار وأحبار أهل الكتاب ، ونحن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم فيما لا يخالف نصوصنا الشرعية ، ونرفض ما خالفها . .

وفي صحيح البخاري قال ابن عباس رضي الله عنهما :

كيف تسألون أهـــل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ؟ !

ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ !

لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم » .

وفي البخاري أيضاً :

كان أهل الكتاب على عهد رسول الله ﷺ يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام :

لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم . »

وقد تكون أقوال السلف آراء اجتهادية قالوها بأنفسهم ، ولكل مجتهد نصيب ، وهم رجال ونحن رجال وإن كان فضلهم فى السبق ونصرة الدين عند الله عظيما . .

وقد تكون أقوالهم آراء لا مجال للاجتهاد فيها ، ولها حكم الرفع إلى رسول الله ﷺ ، ولكنها أدنى درجة من الرفع الصريح ، ومع ذلك فهى لا تخرج عن كونها أحاديث آحاد لا تثبت بها عقيدة يترتب عليها إيمان أو كفر . .

إن أمة الإسلام لا تقدس أحداً من البشر ، واسم القدوس من الأسماء الحسنى لله تعالى . .

ونحن نحترم السلف الصالح ونجلهم وندعو لهم التزاما بقول الله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم »[1]

ورحم الله ابن مسعود حين قال :

« من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالا ، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »

إن التأسى بالسلف الصالح محمدة وشرف ، لكن التأسى لا يعنى عصمتهم ولا حجية آرائهم واجتهادهم فى عقائد الدين ، وإن هناك فرقا واضحا وجليا بين ما هو عقيدة يجب فيها القطع واليقين ، وبين ما هو عمل يكتفى فيه بغلبة الظن ورجحان الدليل . .

(١) سورة الحشر ـ الآية ١٠

الحكم وأنواعه

من الأمور ذات الأهمية التى توضح تقرير العقائد فى الاسلام - أن العلماء على اختلاف مشاربهم يستخدمون الحكم العقلى فى قضايا العقيدة ، ويحتجون بها فى بحوثهم الإيمانية ، فيقولون : هذا الأمر واجب ، وهذا الشىء مستحيل ، وذاك جائز أو ممكن . .

ولولا أن للعقل أحكاما يتفق عليها العقلاء ويلتزم بها العلماء ما شاع ذلك وساغ فى علم العقيدة . .

ونحن نوضح هذه المسألة على النحو التالى :

أقسام العلم :

العلم فى اصطلاح المنطقيين يراد به عمـــوم الإدراك ، وهو تحصيل صورة الشىء فى العقل . .

وهو قسمان : تصور وتصديق :

(أ) التصور : هو حصول صورة الشىء فى الذهن من غير حكم عليه . .

مثاله إدراكنا للمفرد : محمد .

والمضاف : كتاب خالد

والمركب الوصفى : المهندس الماهر

فالذهن يتصور شخصية محمد أو كتاب خالد أو مهارة المهندس ، لكن يظل متطلعاً إلى ما تتم به الفائدة ، فماذا عن محمد ؟ هل هو مسافر أو مقيم أو شجاع أو صادق .. إلخ ؟

وماذا عن كتاب خالد؟ هل هو مفيد أو ضار، أو كبير أو صغير.. إلخ؟

وماذا عن المهندس الماهر؟ هل يحبه الناس أو يحترمونه أو يسألون عنه..؟

(ب) التصديق: هو إسناد أمر لأمر إيجابا أو سلبا..

مثاله: محمد رسول الله، في حال الإيجاب

كتاب خالد لم يصل، في حال السلب

والتصديق هو إذعان للنسبة أي إدراك للرابطة بين طرفي القضية، يصل إلى التسليم والقبول، وقد يكون مطابقا للواقع كقولنا: انتصر صلاح الدين على الصليبيين، وقد يكون مخالفا للواقع مثل: انتصر جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٧م..

وقد يكون التصديق ناشئا عن دليل كقولنا: الله واحد لاشريك له.

وقد يكون بمجرد تقليد كقول النصارى: الله ذو أقانيم ثلاثة، فهذه القضية كاذبة مخالفة للواقع واعتقاد النصارى لها اعتقاد ناشيء عن تقليد لا دليل عليه..

• • •

الحكم الشرعي:

هو خطاب الله تعالى المتعلق بفعل المكلف من حيث إنه مكلف..

وأقسام الحكم الشرعي خمسة هي:

١ — الوجوب إن اقتضى الخطاب الفعل اقتضاء جازما..

مثل: أقيموا الصلاة، فالأمر هنا للوجوب.

٢ — الندب إن اقتضى الخطاب الفعل اقتضاء غير جازم . .

مثل : أفشوا السلام ، فالأمر هنا للندب

٣ — التحريم إن اقتضى الخطاب ترك الفعل اقتضاء جازما . .

مثل : لا تقربوا الزنا ، فالنهى هنا للتحريم

٤ — الكراهة إن اقتضى الخطاب الترك اقتضاء غير جازم . .

مثل : النهى عن الصلاة فى أوقات معينة أو النهى عن قراءة القرآن فى الركوع والسجود . .

٥ — الإباحة إن اقتضى الخطاب التخيير بين الفعل والترك . .

مثل : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم . .

قال الإمام السبكى صاحب متن جمع الجوامع :

والفرض والواجب مترادفان ، خلافا لأبى حنيفة ، وهو لفظى .

والمندوب والمستحب والتطوع والسنة مترادفة ، خلافا لبعض أصحابنا ، وهو لفظى[١] » .

فالحكم الشرعى مرتبط بالنص الدينى ودلالته ، وقد قامت الشريعة على هذه الأحكام التى فصلها علم الفقه وأصوله . .

• • •

الحكم العقلى :

هو إسناد أمر لأمر إيجابا أو سلبا من غير توقف على عادة أو استناد إلى شرع بل يكون العقل وحده هو الفيصل فى هذا الحكم . .

---

(١) مجموع مهمات المتون ص ٨٧ دار الكتب العلمية — بيروت

وينقسم الحكم العقلى إلى ثلاثة أنواع :

١ — الواجب : هو الموجود الذى لا يتصور العقل عدمه ..

مثل : الله عالم .

فثبوت العلم لله تعالى حكم عقلى واجب أزلا وأبدا ،ولا يمكن تصور الانفصال بين العلم والذات الإلهية .

٢ — المستحيل : هو المعدوم الذى لا يتصور العقل وجوده ..

مثل : شريك الله موجود .

فإثبات الوجود لشريك الله تعالى مستحيل ، لأن الشريك معدوم لا يتصور العقل وجوده أزلا ولا أبدا .. ، والعقل حاكم بأن تعدد الآلهة باطل مستحيل ..

٣ — الجائز أو الممكن : هو ما يتصور العقل وجوده تارة وعدمه أخرى ..

مثل : العالم موجود .

فإثبات الوجود للعالم ممكن أو جائز ، لأن العقل يتصور العالم معدوما مرة وموجودا أخرى ، فالإنسان يموت ويحيا ، والشمس تشرق وتغرب ، والقمر يطلع ويغيب ، والنبات ينمو ويذوى ، والمطر ينزل وينقطع ، والحر يشتد ويزول ، والبحر يعتريه المد والجزر ، وهكذا كل شىء فى هذا الوجود ، والذى يقبل الوجود والعدم هو الممكن أو الجائز العقلى ..

الحكم العادى :

ويدخل فى الجواز العقلى الحكم العادى المبنى على العادة أو التكرار ، فما قد نسميه واجبا فى العادة أو مستحيلا فى العادة هو جائز عقلا ، يقبل الوجود تارة والعدم أخرى ..

فإذا قلنا : النار محرقة بناء على أن العادة جرت بأن النار تحرق ما يجاورها وتكرر ذلك كثيراً ، فهذا حكم عادي واجب ، لكن هل ثبوت الإحراق للنار لأنها سبب فيه أو علة مؤثرة ؟

هنا تأتى نظرية السببية ، ويقول أهل السنة إن الفاعل هو الله وحده ، ولا مؤثر فى الوجود غيره ، وثبوت الإحراق للنار على طريق السببية والعادة وهو غايةما يثبته الحس الظاهر من الاقتران بين الإحراق والنار .

وإذا قلنا : يستحيل رؤية من فى المشرق لمن فى المغرب فهذا حكم عادى يجوز تخلفه ، وقد كان الأقدمون يجعلون هذه الاستحالة عقلية لكن الحس المشاهد الآن يبطل ذلك فما أكثر أجهزة التليفزيون والأقمار الصناعية التى تنقل الناس إلى مواقع الأحداث لحظة بلحظة . .

فكل ماأثبتته التجربة أو جاء به التكرار هو حكم عادى يلحق بالجائز العقلى الذى يمكن تخلفه .. وكم من تجارب أثبتها العلماء بالأمس ونقضوها اليوم ، وكم من أحكام بنيت على تكرار ثم تخلفت ..

* * *

والأحكام فى علم العقيدة ترتبط بالحكم العقلى بأنواعه الثلاثة من الوجوب والاستحالة والجواز ، ويستخدم ذلك فى مباحث العلم من الإلهيات والنبوات والسمعيات . . فيقال فى الإلهيات :

يجب لله تعالى كل كمال . .

ويستحيل عليه تعالى كل نقص . .

ويجوز فى حقه تعالى فعل كل ممكن وتركه . .

ويقال فى النبوات :

يجب للأنبياء الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة . .

ويستحيل عليهم الكذب والخيانة والكتمان والبلادة . .

ويجوز فى حقهم ما يجوز على سائر البشر مما لا يقدح فى نبوتهم . .

ويقال فى السمعيات :

إن عذاب القبر ونعيمه والحشر والبعث والميزان والصراط أمور جائزة عقلا ، ورد بها النص الشرعى فيجب الإيمان بها . .

فهى أمور لا يحيلها العقل ولا يوجبها فتبقى فى دائرة الإمكان العقلى . فإذا جاء الخبر الصادق عن المعصوم بثبوتها وجب الإيمان بها فالمدار على صدق الخبر . .

المبحث الرابع

خصائص العقيدة الإسلامية

- صوت الفطرة
- دعوة الأنبياء
- توحيد القرآن
- الدين الخالص
- آفاق عقيدة التوحيد :
  - أفق الاسم
  - أفق العلم
  - أفق الوجدان
  - أفق الاجتماع
  - أفق الفكر

صوت الفطرة

العقيدة الإسلامية تتلخص فى كلمتين اثنتين هما :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وهذه العقيدة من الوضوح واليسر ، ومن العمق والحكمة ، ومن الصدق والحق ما يجعلها تسرى فى كيان الإنسان سريان الدم فى العروق ، وتتغلغل فى أعماقه فتستقر فى قرار مكين من قلبه وعقله ..

فهى قضية فطرية ينادى بها الإنسان فى ظلمات البر والبحر ، ويهتف بها وسط أمواج الحياة ، وتربطه بمخلوقات الله العديدة والعجيبة فى منظومة روحية تنطق بلسان لا ترد حجته :

(ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير)[1] .

ورسالة سيدنا محمد ﷺ أوضح من الشمس فى رابعة النهار ، فقد ادعى النبوة ، وأيده الله بالمعجزات ، وأجرى على يديه خوارق العادات ، واجتمع له ﷺ من شرف النسب ، وعطر السيرة ، وكرم السجايا مالا يجتمع إلا لبشر يوحى إليه ، وإنسان اصطفاه الله للنبوة ..

هذا وقد أخذت قضية الفطرة بحثاً لدى اللغويين والمناطقة وأهل العقيدة . .

---

(١) سورة الحج ـ الآية ٦٢ .

فماذا تقول اللغة ؟
وماذا يرى المنطق ؟
وماذا تريد العقيدة ؟

اللغة تقول :

فطر الله الخلق ، وهو فاطر السموات أى مبتدعها . .
(وكل مولود يولد على الفطرة) أى على الجبلة القابلة لدين الحق . . .
وفطر هذا البئر ، وتفطرت اليد والثوب : تشققت . .
وفطر ناب البعير : طلع .
وفطرت المرأة العجين : خبزته من ساعته قبل أن يختمر . .
وجلد فطير : لم يلق فى الدباغ . .
وكلام يفطر الصوم : أى يفسده . .
وإذا غربت الشمس فقد أفطر الصائم : أى دخل وقت الفطر . .

ومن المجاز :

لاخير فى الرأى الفطير (المتسرع الذى لم يختمر ولم يناقش بروية) .
وتقول : رأيه فطير ولبه مستطير[1] .

وعلم المنطق :

يقسم القضايا إلى يقينيات وغير يقينيات . .
واليقين هو اعتقاد أن الشيء كذا اعتقاداً يقينياً مطابقاً للواقع . .
والقضايا اليقينية تنقسم منطقياً إلى ضروريات و نظريات . .

---

(١) أساس البلاغة للإمام الزمخشرى ص ٤٧٦ ط دار الفكر للطباعة والنشر .

والضرورى — وقد يسمى البديهي — : ما لا يتوقف حصوله فى الذهن على كسب ونظر واستدلال . .

والنظرى : هو الذى يحتاج إلى كسب ونظر واستدلال . .

ومن القضايا الضرورية أو البديهية — الفطريات والأوليات . .

والفطريات : هى القضايا التى يحكم فيها العقل بمجرد تصور الطرفين بواسطة لا تغيب عن الذهن ، وتسمى قضايا قياساتها معها ، مثل : الأربعة زوج .

فإن من تصور الأربعة وتصور الزوجية ترتب فى ذهنه قياس فى الحال هو : الأربعة منقسمة إلى متساويين ، وكل ما كان كذلك فهو زوج ، إذن الأربعة زوج .

والأوليات : هى القضايا التى يحكم العقل بها بمجرد تصور الطرفين بلا واسطة مثل : الكل أعظم من الجزء ، فإن من تصور الكل وتصور الجزء حكم عقله بأن الكل أعظم من الجزء دون واسطة ، فالعقل وحده هو الحاكم هنا[1] . .

وبعض الباحثين يقول :

وجود الله تعالى أمر بدهى لا ينبغى أن يتحدث فيه المؤمنون نفياً أو إثباتاً ، ولا سلباً أو إيجاباً .

إن وجود الله من القضايا المسلمة التى لا توضع فى الأوساط الدينية موضع البحث لأنها فطرية ، وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث

(١) تيسير القواعد المنطقية ، د . محمد شمس الدين إبراهيم ص ٢٦٧ ط حسان سنة ١٩٨١ .

إنما هو شخص فى إيمانه دخل ، وفى دينه انحراف ، فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبته البشر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجىء لإثبات وجود الله وإنما جاء لتوحيدالله ، وإذا تصفحت القرآن أو التوراة حتى على وضعها الحالى، أو الإنجيل حتى فى وضعه الراهن ، فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت فى أى سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينيـــة ، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية . .

والقرآن الكريم يتحدث عن بداهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة ، يقول سبحانه . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله »[١] .

إنهم يقولون إن الخالق هو الله ، مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه فى إيمانهم بالله تعالى ، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد فى الله أو لتصحيح طريق التوحيد . . أما الآيات الكثيرة التى يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود فليست من ذلك فى قليل ولا فى كثير ، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبرياءه وهيمنته الكاملة على العالم ، ما عظم من أمره ودق منه ، لا تفوت هيمنته صغيرة ولا كبيرة ، ولا يخرج عن سلطانه ما دق وما جل »[٢] .

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٢) الإسلام والعقل — د . عبدالحليم محمود ص ٩٦ ط دار الكتب الحديثة .

وهذا المعنى بعينه هو ما ذهب إليه أنصار الاتجاه السلفي فيرى شارح الطحاوية ابن أبي العز الدمشقي أن الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم ، وأن توحيد الربوبية لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم[1] .

ونحن نقول :

إن قضية وجود الله تعالى قضية فطرية بمعنى وضوح الأدلة وكثرة الشواهد واتساع آيات الأنفس والآفاق .. ومتى خلص العقل من شوائب التقليد وعادات البيئة السيئة ورواسب التفكير المنحرف — وصل إلى حقيقة الحقائق « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير »[2] .

ولا يمكن بحال من الأحوال أن نرفض الاستدلال على قضية وجود الله تعالى ، ونصم آذاننا وأسماعنا عن شبهات المنكرين في كل زمان ومكان ، الذين يرفضون الوجود الإلهي الأعلى .. فماذا نفعل مع ملايين البشر قديماً وحديثاً من الدهريين والملاحـــدة والشيوعيين وأصحاب المذاهب الهدامة ؟! .

وإذا كان القرآن المجيد قد تحدث عن اعتقاد المشركين بخلق الله تعالى السموات والأرض في مثل قوله جل جلاله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » فهذا ليس عاماً ، فهو حديث عن جماعة من الوثنيين ، عبدوا الأصنام زلفى إلى الله ، فوقعوا في التناقض حين أقروا لله تعالى بالخلق وتوجهوا لغيره بالعبادة ، فالقرآن يخاطب كل ملة ونحلة بما يدحض اعتقادها .

---

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧ ، ٨٥ ط المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ

(٢) سورة الحج — الآية ٦٢

وإذا كان القرآن قد تحدث عن اتخذ لله ولداً فهل معنى ذلك أن كل الناس يتخذون لله أولاداً ؟ !

وإذا كان القرآن قد تحدث عن عبدة الكواكب فهل يفهم من ذلك أن كل الناس عبدوا الكواكب ؟ !

وإذا كان القرآن قد تحدث عن رفض النبوة للبشر فهل يعنى ذلك أن كل الناس يرفضون بشرية الأنبياء ؟

إن لكل حديث مجاله ، ولكل اتجاه مايناسبه ، ولا يجوز أن يخرج الكلام عن سياقه ومراميه .

لقد أشار القرآن إلى مذاهب منحرفة تجادل فى الله بغير علم وتنكر الوجود الإلهى الأقدس ، فقال الله تعالى :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ؟ ! .

قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين »[1] .

ففى هذا النص الكريم تأكيد أن أمماً كثيرة رفضت دعوة الأنبياء وشكوا فى وجود الله تعالى وأعلنوا رأيهم ذلك . وواجههم الأنبياء بوضوح الأدلة ولفتوا عقولهم إلى آيات الأنفس والآفاق الدالة

---

(١) سورة إبراهيم — الآية ٩ : ١٠

على حتمية وجود الله تعالى وربوبيته للكون والكائنات واستحقاقه العبادة .

وحكى القرآن المجيد مقالة فرعون :

« قال : فمن ربكما يا موسى ؟

قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال : فما بال القرون الأولى ؟

قال : علمها عند ربي في كتاب ، لا يضل ربي ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شيء »[١] .

ويعلق الإمام الرازى على هذه المحاورة قائلا :

إن فرعون كان شديد القوة ، عظيم الغلبة ، كثير العسكر ، ثم إن موسى عليه السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والإيذاء بل خرج معه فى المناظرة لما أنه لو شرع أولا فى الإيذاء لنسب إلى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك ، وشرع أولا فى المناظرة وذلك يدل على أن السفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعى الإسلام والعلم ؟

ثم إن فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل بإقامة الدلالة على وجود الصانع ، وذلك يدل على فساد التقليد ، ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الإله من قول الرسول ، لأن موسى عليه السلام اعترف ههنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول ،

---

(١) سورة طه — الآيات ٤٩ : ٥٣

وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة »[١] .

وحكى القرآن مقالة الدهريين الذين ينكرون وجود الله تعالى ، ويذهبون إلى المقالة المنكرة : ما هى إلا بطون تدفع وأرض تبلع ، هكذا كان فى الأول وهكذا يكون فى الآخر ، بلا إله خالق وبلا موعد منتظر للحساب والجزاء .

قال الله تعالى : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[٢] .

وقد جمع القرآن فى آية واحدة مناهج الاستدلال كلها حول هذه القضية الكبرى فقال :

« أم خلقوا من غير شيء ؟

أم هم الخالقون ؟

أم خلقوا السموات والأرض ؟

بل لا يوقنون »[٣] .

فليس يعقل أن يوجد الإنسان بلا خالق ، فمظاهر الإبداع فيه متناهية الدقة ، تنطق بقوة الحجة بأن الإنسان مخلوق .

---

(١) التفسير الكبير ج ٢٢ ص ٦٢
(٢) سورة الجاثية — الآية ٢٤ : ٢٦
(٣) سورة الطور — الآية ٣٥ : ٣٦

وحيث إن الإنسان مخلوق فليس يعقل أن يوجد مصادفة أو أن يخلق نفسه ، فكلا الاحتمالين مرفوض عقلا ، فالمصادفة لا تخلق نظاما وإبداعا ، ولا يتقدم الإنسان نفسه وإلا كان موجودا معدوما فى لحظة واحدة وهذا تناقض مستحيل .

فإذا انتقلنا إلى ما حول الإنسان من سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وكائنات لا تحصى ولا تعد ، سبقت وجود الإنسان ، وتبقى بعد زواله ، ولا يستطيع تعديل نواميسها بل لا يستطيع الإحاطة بها .. فالنتيجة الحتمية هى أن الله موجود ، وخالق الكون والكائنات ، ومدبر الأمر كله ، وله السلطان المطلق .

إن المجال العقلى فى النظر إلى الكون سمائه وأرضه ، حيوانه وطيره ، بره وبحره — كفيل بقيادة البشر « حتى يتبين لهم أنه الحق » ، وجدير بإظهار حقيقة الحقائق :

« ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير »(١) .

وحينما سئل رائد الفضاء السوفيتى (جاجارين) عما شاهده فى رحلته الأولى حول الأرض قال :

لقد شاهدت الأجرام السماوية والكواكب تدور فى نظام دقيق كأن قوة عليا تمسك بها وتهيمن عليها » .

ذلك هو الشعور الفطرى الذى عبر عنه القرآن المجيد بقوله :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفوراً »(٢) .

---

(١) سورة الحج الآية ٦٢ (٢) سورة فاطر الآية ٤١

وما كاد (جاجارين) يصرح بذلك حتى استدعاه (خروشوف) رئيس الوزراء السوفيتى ، وذكره بشيوعيته فكيف ينطق بما يفهم منه الإيمان بالله ؟ :

فلم يلبث أن أعلن أنه بحث عن الله فى كل مكان فى السماء فلم يجده !!

وقد زار القاهرة خلال شهر يناير سنة ١٩٧٥ رائد الفضاء الأمريكى (جيمس أروين) قائد رحلة أبوللو ١٥ التى استغرقت ثلاثة عشر يوما من ٢٦ يوليو إلى ٧ أغسطس سنة ١٩٧١ ، وقضى منها حوالى عشرين ساعة على سطح القمر فى سيارة خاصة .

وفى حوار صحفى معه نشر فى صحيفة أخبار اليوم (١٩٧٥/١/١١) .

قال :

لقد أدى نزولى على سطح القمر إلى زيادة إيمانى بالله ، وزادت العقيدة الدينية عمقا فى نفسى .. .

فقيل له :

ولكن جاجارين قال إنه بحث عن الله فى السماء فلم يجده !؟

فقال أروين :

أنا لا أعرف إذا كان جاجارين قد صرح بذلك أم لا ، ولكنى أحب أن أوضح أن الإنسان لا يمكن أن يرى الله بعينيه كما يرى سائر الكائنات، وأنا أيضا لم أر الله فى رحلتى من الأرض إلى القمر .. ولكنى شعرت به وازداد إيمانى بوجوده ، وبقدرته ، وبقوته .. .

فهذه الكواكب والنجوم التى تسبح فى الفضاء اللانهائى بنظام رائع ، وبديع ، ومحكم، لا يمكن أن تكون قد وجدت تلقائيا أو بمحض الصدفة

ولكن لابد من وجود قوة خارقة لا يبلغ مداها عقل الإنسان هي التي تتولى تنظيم حركة الكون وحركة الكواكب والنجوم في الفضاء .
وهذه هي القدرة الإلهية !!

حديث الفطرة :

لقد أمرنا الله تعالى أن نحافظ على فطرة التوحيد ، والاعتصام بشريعة الحق ، ونخلع ربقة الجاهلية التي تعمل على تغيير معالم الفطرة ، فقال جل شأنه :

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم .

ولكن أكثر الناس لايعلمون ، منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بمالديهم فرحون »(١) .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى :

«إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .

ونحن نؤمن بالفطرة على المستوى الجمعي وعلى المستوى الفردي .

فالفطرة على المستوى الجمعي تعني أن البشرية جمعاء بدأت عقيدتها بالتوحيد الخالص لله تعالى انطلاقا من أولية آدم عليه السلام وهبوطه إلى الأرض طاهراً مجتبى .

والفطرة على المستوى الفردي تعني قبول الإنسان للحق وإيمانه بالله

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠ : ٣١

ويقينه بأن للكون خالقا مبدعا حكيما لا شريك له، طالما كان الفرد سليما من آفات التقليد والهوى والمادة الجاهلية ..

وفى ذلك يقول الرسول ﷺ - كما فى الصحيح - :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ .

وفى رواية : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها من جدعاء »(١) .

وإذا استطلعنا آراء العلماء فى شرح هذا الحديث الشريف نجد الإمام ابن حجر العسقلانى يقول :

وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام ، قال ابن عبد البر : وهو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى « فطرة الله التى فطر الناس عليها » الإسلام ..

ثم نقل ابن حجر أن المراد بالفطرة تمكن الناس من الهدى فى أصل الجبلة والتهيؤ لقبول الدين ، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها ، لأن حسن الدين ثابت فى النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد ..

وإلى هذا مال القرطبى فى المفهم فقال :

المعنى أن الله خلق قلوب بنى آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم

---

(١) تنتج — بضم أوله وسكون النون وفتح التاء بعدها جيم — على مالم يسم فاعله (مبنى للمجهول) والجدعاء المقطوعة الأذن ، والمراد أن البهيمة تولد سليمة ثم يجدعها الناس بعد ذلك .

وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ، ودين الإسلام هو الدين الحق . .

وقد دل على هذا المعنى بقية الحديث حيث قال عليه الصلاة والسلام : «كما تنتج البهيمة » يعنى أن البهيمة تلد الولد كامل الخلقة ، فلو ترك كذلك كان بريئا من العيب لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه ، مثلا فخرج عن الأصل ، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح .

ثم نقل ابن حجر توضيحاً لمعنى الحديث عن ابن القيم فقال :

ليس المراد بقوله « يولد على الفطرة » أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين ، لأن الله تعالى يقول « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً »[١] .

ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته ، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة .

وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك لأنه لا يتغير بتهويد الأبوين مثلا بحيث يخرجان الفطرة عن القبول .

وإنما المراد أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية ، فلو خلى وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره .

كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه الصارف ، ومن ثم شبهت الفطرة باللبن بل كانت إياه فى تأويل الرؤيا .. »[٢] .

---

(١) سورة النحل — الآية ٧٨

(٢) فتح البارى — شرح صحيح البخارى جـ ٣ ص ٢٤٩

ومن هذا يتبين أن مايجرى على الفرد هو مايجرى على النوع، ففطرة الفرد تنادى بالتوحيد .

والإنسان فى حال الضيق والاضطرار واليأس يجد نفسه مدفوعاً دفعاً قوياً إلى اللجوء إلى الله وحده واستمداد العون منــــه، ومناجاته رجاء كشف الضر وإزالة الغمة والإنقاذ من المحنة كما قال تعالى : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون »[1] .

وإن الإنسانية فى بدء أمرها لم تنشأ فى غيبة الوحى الإلهى ولا بعيداً عن منهج الرسل .

---

(١) سورة الأنعام — الآية ٦٣ ، ٦٤

دعوة الأنبيـــاء

بعث الله الأنبياء ليقيموا التوحيـــد ، وينشروا لواء الوحدانية ، ويحققوا العلاقة الصحيحة بين الخلق والخالق..

قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »[١] .

وكانت كلمة التوحيد هي كلمة الوحي الأولى التي جاهد عليها جميع الأنبياء .. قال جل شأنه :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »[٢] .

ولهـــذا التقى رسل الله وأنبياؤه على نداء واحد ، توجهوا به إلى أقوامهم وهو : « اعبدوا الله مالكم من إله غيره »

قاله نوح عليه السلام :

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »[٣] .

وقاله هود عليه السلام :

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من غيره أفلا تتقون »[٤] .

---

(١) سورة النحل — الآية ٣٦
(٢) سورة الأنبياء — الآية ٢٥
(٣، ٤) سورة الأعراف ٥٩ ، ٦٥

وقاله صالح عليه السلام :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم .. »[١] .

وقاله إبراهيم عليه السلام :

« وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[٢] .

وقاله شعيب عليه السلام :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم »[٣] .

وقاله المسيح عليه السلام فى الدنيا :

« وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار »[٤] .

وسيقوله المسيح مرة أخرى أمام الأشهاد فى القيامة :

« ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم »[٥] .

وهكذا كل نبى ..

---

(١) سورة الأعراف ٧٣
(٢) سورة العنكبوت — الآية ١٦
(٣) سورة الأعراف — الآية ٨٥
(٤) سورة المائدة — الآية ٧٢
(٥) سورة المائدة — ١١٧

وقدم الأنبياء لأقوامهم مناهج الأدلة وقواطع البراهين، وجادلوهم بالتي هي أحسن، وألزموهم الحجة في كل زمان ومكان . .

لقد ساق نوح عليه السلام لقومه آيات الأنفس والآفاق، ولفت عقولهم إلى إتقان الصنع وإبداع الخلق في السموات والأرض، وذكرهم بنعم الله التي تتوالى عليهم بالليل والنهار، لا يملكون فيها من قطمير، وليس لهم فيها من شرك، ولا قدرة لبشر عليها . .

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام :

« مالكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا ؟ !

ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا، وجعل القمر فيهن نورا، وجعل الشمس سراجا ؟ !

والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . .

والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا »(1) .

• • •

وشارك إبراهيم عليه السلام في مجادلات شتى ومحاورات عدة، مع الملك الطاغية، ومع أبيه، ومع عبدة الأصنام، ومع عبدة الكواكب . .

وحدد لكل فريق منهاجا للاستدلال، ولكل قوم طريقة في البحث، كي يصل بهم إلى فطرة الحق ونقاء التوحيد . .

ونقرأ على سبيل المثال :

«وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من

---

(1) سورة نوح — الآية ١٣ : ٢٠

الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لاأحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ،هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون . .

إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين » (١) .

لقد اصطفى الله إبراهيم وعلمه ، وآتاه الحجة ،وزاده حكمة وعمق بيان ويقين استدلال . .

واتجه إبراهيم إلى الصابئة الذين يعبدون الكواكب من دون الله ، وتنزل إليهم وشرح لهم أحوالها التى تتنافى مع الألوهية وتنأى بها عن الربوبية . .

وانتهى بهم إلى ضرورة اليقين بحقيقة الحقائق والتسليم لله فاطر الكون ومبدع الكائنات ، ومانح الأسباب والمسببات ، والمهيمن على كل شيء . .

(١) سورة الأنعام — الآية ٧٥ : ٧٩

توحيد القرآن

إن الجانب الإلهى فى الإسلام تحدده كلمات قصار ، هى قمة الإعجاز وقوة التصوير ، فى قوله تعالى :

« قل هو الله أحد ،

الله الصمد ،

لم يلد ولم يولد ،

ولم يكن له كفواً أحد » .

وقد جاء فى أسباب النزول أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : أنسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وثبت فى صحيح الحديث أنها تعدل ثلث القرآن ، ففى صحيح البخارى أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها (١) فقال النبى ﷺ : والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن .

وفى رواية أخرى : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله ؟ فقال : « قل هو الله أحد » ثلث القرآن .

وفى توجيه أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن أقوال للعلماء منها :

١ — هى ثلث القرآن باعتبار المعانى القرآنية ، فالقرآن أحكام

---

(١) يعدها قليلة .

وأخبار وتوحيد ، وقد اشتملت هذه السورة على القسم الثالث وهو التوحيد .

٢ — إن معرفة الله تعالى قائمة على معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال ، وهذه السورة بينت معرفة الذات المقدسة بجلالها وكمالها ، فالأحدية تشعر بوجود خاص لا يشاركه فيه غيره ، والصمدية تشعر بجميع خصال الكمال لأنه الذى انتهى إليه السؤدد فكان الملجأ والمنجى منه وإليه .

٣ — إن ثواب قراءة سورة الإخلاص يعدل ثواب من قرأ ثلث القرآن .

٤ — ادعى بعضهم أن قوله : « تعدل ثلث القرآن » يختص بصاحب الواقعة لأنها لما رددها فى ليلته كان كمن قرأ ثلث القرآن بغير ترديد . ولعل الرجل الذى جرى له ذلك لم يكن يحفظ غيرها فلذلك استقل عمله ، فقال له الشارع ذلك ترغيباً له فى عمل الخير وإن قل[1] .

ولهذه السورة خاصة أخرى جليلة ، فمن قرأها وداوم عليها وتعلق بها وعقل معناها وعمل بمقتضاها قاده ذلك إلى الجنة وحظى بالرضوان الأكبر ، وقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبى ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحبه .

---

(١) راجع هذه الآراء فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٩ ص ٦١

وفى موقف آخر كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد، حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها وإما أن تقرأ بالأخرى.

فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبى ﷺ أخبروه الخبر فقال: يافلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة؟

قال: إنى أحبها، قال عليه الصلاة والسلام: «حبك إياها أدخلك الجنـة».

وألفاظ السورة الكريمة تحدد الجانب الإلهى تحديداً واضحاً، فالله أحد، ولفظ الأحد فى الإثبات لا يطلق إلا على الله عز وجل لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله.

وقد ذكر الإمام الرازى بحثاً قيما حول التعبير الشريف «الله أحد» فقال: إن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية، أما الإضافية: فكقولنا عالم، قادر، مريد، خـــلاق، وأمـا السلبية فكقولنا: ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض.

والمخلوقات تدل أولا على النوع الأول من الصفات، وثانياً على النوع الثانى منها، وقولنا «الله» يدل عـــلى مجامع الصفات الإضافية، وقولنا «أحد» يدل على مجامع الصفات السلبية، فكان قولنا «الله أحد» تماما فى إفادة العرفان الذى يليق بالعقول البشرية.

وإنما قلنا إن لفظ « الله » يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وذلك لأن الله هو الذي يستحق العبادة ،واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبدا بالإيجاد والإبداع ، والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفا بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات، من الكليات والجزئيات وهذه مجامع الصفات الإضافية .

وأما مجامع الصفات السلبية فهي الأحدية وذلك لأن المراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة ، منزهة عن أنحاء التركيب وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره . فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل مركب فهو ممكن لذاته .

فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات يمتنع أن يكون ممكناً ، فهو في نفسه فرد أحد ، وإذا ثبتت الأحدية وجب أن لا يكون متحيزا فإن يمينه مغاير ليساره وكل ما كان كذلك فهو منقسم ، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزا .

وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهات، ويجب أن لا يكون حالا في شيء ، لأنه مع محله لا يكون أحداً ، ولا يكون محلا لشيء لأنه مع حاله لا يكون أحداً .

وإذا لم يكن حالا ولا محلا لم يكن متغيراً ألبتة لأن التغير لابد وأن يكون من صفة إلى صفة .

وأيضا إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً ، إذ لو فرض موجودان واجبا الوجود لاشتركا في الوجوب ولتمايزا في التعين ،

وما به المشاركة غير ما به الممايزة . فكل واحد منهما مركب ، فثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً »[1] .

وقوله تعالى : « الله الصمد » يراد به المقصود فى الحوائج،المستغنى عن العالمين ، وهو يلتقى فى المعنى مع الآية الكريمة : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله،والله هو الغنى الحميد »[2] .

وهذا المعنى يوضحه الحديث الشريف القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . .

---

(١) التفسير الكبير للإمام الرازى جـ ٣٢ صـ ١٨٠ ط دار الفكر .
(٢) سورة فاطر الآية ١٦ .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . .

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ،ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، رواه مسلم .

وقوله تعالى : « لم يلد ولم يولد » إشارة إلى أنه تعالى أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء فهو سبحانه الأزلي الأبدي ، وقد ادعى المشركون أن الملائكة بنات الله ، وادعى اليهود أن عزيراً ابن الله ، وادعى النصارى أن المسيح ابن الله « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » ، فالآية الكريمة تنفي الوالدية والمولودية وتؤكد الأحدية الصمدية .

وقوله تعالى : « ولم يكن له كفواً أحد » تثبيت لعقيدة مفارقة الله لسائر الكائنات وعلوه عليها ، وأن كل ما طرأ ببالك فالله بخلاف ذلك . .

وبهذه السورة الكريمة وبهذا الوضوح الجلي في العقيدة الإسلامية تتهاوى كافة العقائد الوثنية وأباطيل أهل الكتاب وأوهام الفلاسفة . .

الدين الخالص

إن عالم اليوم الذى تصارعت فيه القوى والمذاهب ووصل إلى درجة التشبع المادى الرخيص .. أصبح يتلهف على عقيـــدة تؤازر العقل الراشد ، وتهب السعادة للنفس الإنسانية وتتسامى بعواطف الإنسان وغرائزه إلى آفاق الملأ الأعلى .

ولن تكون تلك العقيدة إلا عقيدة الإسلام الذى ختم الله به الرسالات فهو الدين القيم ، وهو أمل الإنسانية المرتقب فى اليوم ، وفى الغد بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

المراد بالدين الخـالص :

فالعقيدة الإسلامية هى الدين الخالص الذى لا يعرف معبوداً غير الله الواحد الأحد ، له وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ، وعليه وحده التوكل ، وإليه وحده المناجاة والتضرع .

قال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة »[١] .

والعقيدة الإسلامية لا تعرف تشبيهاً أو تجسيماً للألوهية بل كل ما طرأ ببالك فالله بخلاف ذلك .. قال سبحانه : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »[٢] .

والعقيدة الإسلامية لا تعرف حلولا أو اتحاداً ، فالكون والكائنات جميعاً مربوبة لله سبحانه ، وواقعة تحت قهره وسلطانه وهيمنته ..

---

(١) سورة البينة آية ٥ .
(٢) « الشورى آية ١١ .

قال جل شأنه : «ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال»[١].

وقال سبحانه وتعالى :

«لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً»[٢].

والعقيدة الإسلامية لا تعرف وساطة أو كهانة ، وقد نص القرآن على قوم بدلوا عقيدة التوحيد كفراً فقال :

«اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون»[٣].

وفي حديث رواه أحمد والترمذي وابن جرير أن عدي بن حاتم الطائي - وكان قد تنصر في الجاهلية - دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فقال عدي : إنهم لم يعبدوهم .

فقال الرسول ﷺ : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم .

---

(١) سورة الرعد الآية ١٥ .
(٢) سورة النساء - الآية ١٧٢ : ١٧٣
(٣) « التوبة - الآية ٣١ .

مفهوم العبادة :

إن المسلم يقرأ كل يوم سورة الفاتحة سبع عشرة مرة على الأقل وفيها قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين »، وفى تقديم الضمير « إياك » على الفعلين ما يدل على الاختصاص.

فالعبادة هى منتهى الخضوع والتذلل ..

والاستعانة هى طلب العون ممن يقدر ويملك ..

فالله وحده مالك الملك والملكوت، ذو القوة والجبروت ..

فعليه وحده التوكل وإليه وحده إسناد عظائم الأمور ودقائقها، قال تعالى :

« وتوكل على العزيز الرحيم »[1]

« وتوكل على الحى الذى لا يموت »[2]

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »[3]

وإلى الله وحده المناجاة والتضرع، فيكشف الضر، ويجيب المضطر ويرزق من يشاء بغير حساب .. قال تعالى :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »[4].

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٧
(٢) « الفرقان الآية ٥٨
(٣) « الأحزاب الآية ٣
(٤) « البقرة الآية ١٨٦

ولله وحده الحب كله في أسمى معانيه وأجل مقاماته وأعظم درجاته ، قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله »(*) .

ومن الله وحده الخشية والرهبة . . . قال تعالى : « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى بالله حسيبا »(١) .

المعاني البشرية :

إن الحب والخشية والدعاء والاستعانة عندما نتوجه بها إلى الله تعالى فهي اليقين الكامل بأن الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، ذو الجلال والإكرام . .

ولا حرج شرعاً في استخدام هذه الألفاظ في المجال البشري ، فنحن نحب أهلينا وأموالنا ، ونخشى أعداءنا ، وندعو الكبراء فينا ، ونستعين بالأقوياء ، ونطلب النجدة عن يستطيع نصرتنا . .

لكن هذا الاستخدام البشري إنما هو في إطار الضعف الإنساني والقدرة البشرية الممنوحة من الخالق المبدع الحكيم ، ومن باب التعاون على البر والتقوى . .

ولسنا ندعي لأحد من البشر هيمنة على الكون أو سلطانا على الكائنات أو علوا على الخلق ، أو تدبيرا الملكوت . .

فالمنهي عنه شرعا هو حب الناس كحب الله أو خشية الناس كخشية

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥
(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٩

الله ، أو دعاء الناس كدعاء الله . . وهـــذا ما أكـدته النصوص الشرعية . . قال تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله »(١) .

وقال جل شأنه : « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية »(٢) .

فلكل درجته ولكل حدوده . .

وما كان لله فهو أعز وأكرم وأجل . .

نماذج شركية :

وانطلاقا من هذه الخاصة العقدية نهى الإسلام أشد النهي عن أمور تتنافى مع الدين الخالص ، وتشوب العقيدة الصحيحة وقد تصل بها إلى الشرك الخالص . . فنهى الإسلام عن اتخاذ القبور مساجد ، ففي الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن أم سلمة رضى الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » .

وحرم الإسلام أكل ما ذبح لغير الله ، فقال تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق »(٣) .

وحذر الإسلام من الاعتقاد الخاطىء في السحر والكهانة والتنجيم

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥
(٢) سورة النساء الآية ٧٧
(٣) سورة الأنعام الآية ١٢١

والتطير، فنى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا : يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وفى الصحيح أيضا :

« من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

آفاق عقيدة التوحيد

١ — أفق الاسم :

• « لا إله إلا الله » هى كلمة التوحيد الخالص لله تعالى ، فلا معبود بحق سوى الله ، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة ، وهو وحده المستغنى عما سواه ، والجميع فى حاجة إلى الله خلقاً ومددا وهداية ..

قال الله تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد »(١) .

• « لا إله إلا الله» هى كلمة الإخلاص ، لأن تعدد الشركاء والآلهة الموعومة يورث شتات الفكر وضياع الوعى ونفاق الكلمة والسلوك قال الله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون »(٢) .

• « لا إله إلا الله » هى كلمة التقوى ، فلا وقاية من عذاب الله وسخطه إلا بالتوحيد ، ولا وقاية من الانحراف والخطيئة إلا بالتوحيد .

فمن أيقن بأن الله واحد لا شريك له ، أسلم وانقاد له فالتزم الأمر واجتنب النهى وحافظ على الشريعة . .

وقد جعلها الله وساما رفيعا لأصحاب بيعة الرضوان فقال : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق

---

(١) سورة فاطر الآية ١٥

(٢) « الزمر الآية ٢٩

بها وأهلها،وكان الله بكل شيء عليما »(١) .

● « لا إله إلا الله » هي دعوة الحق ، فعندما يؤمن الإنسان بعقيدة التوحيد إيمانا راسخا يسره أن يدعو الناس إليها ويعرفهم بها ويأخذ بأيديهم إلى رحابها ، لأن التوحيد هو أصل كل خير وأساس كل سلوك رشيد ، فالمنطلق لحياة كريمة طيبة في الدنيا والآخرة هو توحيد الله تعالى ، والشهادة له سبحانه بالجلال والكمال ، والاستقامة على شرع الله عز وجل . .

قال تعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال »(٢) .

● « لا إله إلا الله » هي الكلمة الطيبة التي تثمر كلمات طيبات تضيء جوانب الحياة بأسرها ، فما من كلمة خـــير وبر ومعروف إلا ومنطلقها كلمة التوحيد ، وفي غيبة هذه الكلمة الطيبة تتوالى الشرور وتتوارد المفاسد ويضيع الأمل وتصبح الحياة جرداء قاحلة . .

قال تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار »(٣) .

● « لا إله إلا الله » هي العروة الوثقى ، فمن حقق المسلم التوحيد في

---

(١) سورة الفتح الآية ١٨

(٢) « الرعد الآية ١٤

(٣) « إبراهيم الآية ٢٤ : ٢٦

العقيدة ، وأثمر في قلبه الإخلاص النقي ، ودفعه إلى التقوى ، وعاش بالكلمة الطيبة من أجل دعوة الحق — فقد استمسك بالعروة الوثقى وتمكن من ناصية السعادة والفوز المبين ..

قال الله تعالى «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور »[1] .

• « لا إله إلا الله » هي مفتاح الجنة . .

قال تعالى : « إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار »[2] .

فليس هناك أظلم ممن أغلق عينيه دون النور ، وطمس بصيرته دون الوحي الإلهي، وتمرد على الشرع الشريف . .

٢ — أفق العلم :

إن عقيدة التوحيد تنشأ عن العلم بآيات الأنفس والآفاق ، والتعرف على ملكوت السموات والأرض ، والتأمل في صنع الله الذي أتقن كل شيء ..

ولهذا قال الله تعالى : «فاعلم أنه لا إله إلا الله »[3] .

فالإيمان مصاحب للعقل، ولا دين لمن لا عقل له ، ولا عقل لمن لا دين له . .

وقد حرص القرآن المجيد على تأكيد أهمية العلم ودوره في بناء العقيدة

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٢

(٢) سورة المائدة الآية ٧٢

(٣) سورة محمد الآية ١٩

الصحيحة ، وكان الشعار المرفوع دائماً في مواقف الجدال مع خصوم الدعوة هو قوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[١] .

« قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا »[٢] .

وكان القرآن كتاب الكون المقروء وكان الكون قرآن الله المنظور ، ولنقرأ : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ !

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟

سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ !

قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ !

بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون

ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون »[٣] .

إن عقيدة التوحيد تدفع المسلم دفعاً قوياً إلى طلب العلم والبحث في نواميس الكائنات ، والتعرف على خصائص الأشياء والانتفاع بالملكات التي منحها الله لنا ..

وقد أعلى الله منزلة العلماء فقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة

(١) سورة النمل الآية ٦٤
(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨
(٣) سورة المؤمنون الآية ٨٤ : ٩١

فقال «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط،لا إله إلا هو العزيز الحكيم»[١] .

وخص العلماء بالخشية فقال « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[٢] فعلى قدر معرفة الإنسان بربه تكون خشيته منه سبحانه . .

ومن هنا كان طلب العلم فريضة وكان طالب العلم معانا من الله ، قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقاً إلى الجنة،وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع .. » .

٣ — أفق الوجدان :

خلق الإنسان في كبد ، وقدم إلى الحياة وسط متاعب ومشاغل وهموم تلازمه ، فيضيق صدر الإنسان ويعتريه القلق . .

والحل هو عقيدة التوحيد والإيمان بالله عز وجل ، فهو الأمل في هذه الحياة ، وهو الضياء لمسيرة الإنسان ..

إن الحياة قائمة على المتقابلات من صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر، ومن أولاد أو عقم ، ومن شباب أو كهولة . . الخ وليس هناك من ناموس يحكم هذه المتقابلات ويهب الناس السكينة حيالها إلا الإيمان بالله ذلك أن الحياة في منطق الإيمان مبنية على قانون عام هو الابتلاء والامتحان .. قال الله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة »[٣] .

وشأن المؤمن أن يكون شاكراً عند النعمة والعطاء ،صابرا في مواقع

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨
(٢) سورة فاطر الآية ٢٨
(٣) سورة الأنبياء الآية ٣٥

القضاء، قال تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه »(١) .

وبذلك يعيش المؤمن فى هدوء وسكينة، منشرح الصدر قرير العين .

وفى غيبة عقيدة التوحيد يتكبر الإنسان عند النعمة ويطغى بها ويفسد فى الأرض ، وعند المصيبة يجزع ويقنط وييأس وتنهار حياته ، ولهذا قال رسول الله ﷺ « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » .

وفى مواقف كثيرة عندما تنقطع الأسباب ويظلم الطريق يلجأ الإنسان إلى ربه رجاء كشف الغمة فإذا تداركته رحمة الله ونجا ـ عاود الإنسان انحرافه ونسى نعم الله عليه ..

وفى تصوير هذه الحال العجيبة يقول الله تعالى : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه »(٢) .

أى أنه فى حال شدة البحر وإشراف المرء على الغرق ينسى جميع الشركاء ولا يعتقد إلا فى قدرة الله جل جلاله ، فيحقق الله رجاءه وينقذه مما فيه من أهوال ، ولكن الإنسان تلهيه النعمة :

«فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا» .

وهل نسى أن إله البحر هو إله البر ، وأن صاحب الهيمنة المطلقة هو الله وحده ؟ [أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا] .

---

(١) سورة التغابن الآية ١١

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٧

ثم أليس من الممكن أن تعود الشدة مرة أخرى ويقف الإنسان نفس الموقف السابق يحيط به الموج من كل مكان ؟ [أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً] .

إن العاقل يتعرف إلى الله فى الرخاء ليعرفه فى الشدة ويظل وفيا لمنهج الله فى السراء والضراء . .

٤ — أفق الاجتماع :

إن عقيدة التوحيد تعمق فى قلب الإنسان لتنير الحياة بأسرها ، ولتقدم للناس كرائم الأخلاق ، ومحامد السير ، وفضائل الأعمال ، وطيبات السلوك . .

ويتحقق ذلك من جوانب عدة . .

يتحقق من خلال المراقبة الذاتية التى تجعل المؤمن يسعى لأن يراه الله حيث أمره ويفقده حيث نهاه ، قال الله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ،ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم »[١] .

ويتحقق من خلال التراحم والتواصل بين الأجيال وفئات المجتمع . . كما قال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم »[٢] .

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧
(٢) سورة الحشر الآية ١٠

ويتحقق من خلال الإيثار والتضحية ، فيحب المؤمن لأخيه مايحب لنفسه بل قد يقدمه على نفسه .. قال الله تعالى : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »[١] .

ويتحقق من خلال العمل المخلص الدءوب،بحيث يؤدى المؤمن عمله بإتقان .. قال الله تعالى :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »[٢].

ويتحقق من خلال الالتزام بمنهج الله الذى يهدى للتى هى أقوم ، فإن الإنسان صنعة الله ، والله أعلم بما يصلحه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[٣] ..

وما ساد ظلم ولاضاع حق ولا انتهكت حرمة إلا فى غيبة منهج الله، حيث يوجد الإيمان توجد الأمانة والأمن .. قال تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »[٤] .

---

(١) سورة الحشر الآية ٩
(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥
(٣) سورة الملك الآية ١٤
(٤) سورة الأنعام الآية ٨٢

● — أفق الذكر :

إن عقيدة التوحيد بعمقها التاريخي وآفاقها العلمية والنفسية والاجتماعية تتغلغل في الحياة بأجمعها ..

وهذه الأهمية القصوى تحتم أن يظل المؤمن مرددا بقلبه ولسانه « لا إله إلا الله » حتى لا يكون من الغافلين ..

إن الحياة حلوة بذكر الله ، سعيدة بمنهج الله ، ممتدة باسم الله ، وهذا المعنى يجعل المؤمن في قمة الوعي والعقل .. قال الله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد »(١) .

إن هذا الذكر هو دعوة تأمل في خلق الله ، ودعاء إلى الرب الكريم ، وجهاد من أجل الحق ، ورجاء في محاسن الدنيا ومحاسن الآخرة ، فقد وعد الله رسله والمؤمنين النصر والتمكين في الدنيا والفردوس الأعلى في الآخرة .

والمراد بالذكر قياماً وقعوداً وعلى الجنوب هو الاستمرار والدوام على كل الأحوال ، وفي كافة المواقف ، وليس المراد افتعال قيام وقعود ..

وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن شرائع

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ : ١٩٤ .

الإسلام كثرت على ، فباب من الخير جامع ، فقال : لايزال لسانك وطبا بذكر الله ».

إن الذكر مفتاح الخير السلوك الإنسانى ، فليس يعقل أن إنسانا يردد بقلبه ولسانه . « لا إله إلا الله » و يعقل معنى كلمة التوحيد هذه ثم هو يغتاب أو يحقد أو يقصر فى عمل ، أو يفرط فى واجب ، أو يقف موقف الفاحشة والمنكر . .

وفى ثواب ذكر كلمة التوحيد جاء الحديث الصحيح « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأته أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك »

إن إنسانا يردد فى اليوم كلمة التوحيد مائة مرة هو إنسان تائب يستمطر رحمة الله ، ويسعى لأداء الفرائض ، ويكف عن المحارم ، ويتخلق بأخلاق الله . .

المبحث الخامس

قراءة فى كتب العقيدة

- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل
  للإمام ابن خزيمة
- المواقف فى علم الكلام
  لعضد الدين الإيجى
- شرح العقيدة الطحاوية
  للشيخ ابن أبى العز الدمشقى
- رسالة التوحيد
  للإمام محمد عبده

التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل.

للإمام محمد بن إسحق بن خزيمة
المتوفى سنة ٣١١ هـ

- المؤلف وسبب التأليف
- الصفات الخبرية
- كلام الله تعالى
- الرؤية
- الشفاعة
- حكم مرتكب الكبيرة
- ملاحظات

التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل(١)

المؤلف :

الإمام محمد بن إسحق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري . ولد في شهر صفر سنة ٢٢٣ هـ ، وتوفي سنة ٣١١ هـ .

وكان شافعي المذهب ، وله مؤلفات كثيرة ، أهمها كتابه في الحديث المسمى .. صحيح ابن خزيمة .

سبب التأليف :

يقول المؤلف في مقدمته :

تعالى ربنا عن صفات المحدودين ، وتقدس عن شبه المخلوقين ، وتنزه عن مقالة المعطلين ، وعلا ربنا ، فكان فوق سبع سماواته عاليا ، ثم على عرشه استوى ، يعلم السر وأخفى ، ويسمع الكلام والنجوى .

ثم يقول : أما بعد : فقد أتى علينا برهـة من الدهر ، وأنا كاره للاشتغال بتصنيف ما يشوبه شيء من جنس الكلام(٢) من الكتب وكان أكثر شغلنا بتصنيف كتب الفقه التي هي خلو من الكلام في الأقدار الماضية التي قد كفر بها كثير من منتحلي الإسلام ، وفي صفـات الله عز وجل التي قد نفاها ولم يؤمن بها المعطلون ، وغير ذلك من الكتب التي ليست من كتب الفقه ..

---

(١) الكتاب راجعه وعلق عليه الدكتور محمد خليل هراس ، وطبعته مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م

(٢) المراد علم الكلام المذموم على عصر المؤلف .

وكنت أحسب أن ما يجرى منى بين المناظرين من أهل الأهواء فى جنس الكلام فى مجالسنا ، ويظهر لأصحابه الذين يحضرون المجالس والمناظرة من إظهار حقنا على باطل مخالفينا فى المناظرة — كاف عن تصنيف الكتب على صحة مذهبنا ، وبطلان مذاهب القوم ، وغنية من الإكتاب فى ذلك ..

فلما حدث فى أمرنا ما حدث مما كان الله قد قضاه ، وقدر كونه مما لا محيص لأحد ، ولاموئل عما قضى الله كونه فى اللوح المحفوظ قد سطره من حتم قضاه ، فمنعنا من الظهور ونشر العلم وتعليم مقتبس العلم بعض ما كان الله قد أودعنا من هذه الصناعة .

كنت أسمع من بعض أحداث طلاب العلم والحديث ، عن لعله كان يحضر مجالس أهل الزيغ والضلالة من الجهمية المعطلة والقدرية المعتزلة — ما تخوفت أن يميل بعضهم عن الحق والصواب ، من القول بالبهت والضلال فى هذين الجنسين من العلم ، بإثبات القول بالقضاء السابق والمقادير النافذة قبل حدوث كسب العباد ، والإيمان بجميع صفات الرحمن الخالق جل وعلا ، بما وصف الله به نفسه فى محكم تنزيله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وبما صح وثبت عن نبينا ﷺ بالأسانيد الثابتة الصحيحة بنقل أهل العدالة موصولا إليه ﷺ . . فيعلم الناظر فى كتابنا هذا عن وفقه الله تعالى لإدراك الحق والصواب ، ومن عليه بالتوفيق لما يحب ويرضى — صحة مذهب أهل الآثار فى هذين الجنسين[1] من العلم ، وبطلان مذاهب أهل الأهواء والبدع الذين هم فى ريبهم وضلالتهم يعمهون ... » .

(١) المراد علم القضاء والقدر وعلم التوحيد والصفات .

فالمؤلف خرج من محنته وسجل مناظراته وآراءه فى كتب كى يرجع إليها طلاب العلم ولا تذهب سدى مع الأيام ..

وهو يهتم بجانبين من العلم هما القضاء والقدر ، والتوحيد والصفات .

وهو يتهم مخالفيه بالكفر بسبب آرائهم فى هذين العلمين ..

ويحدد فرقاً بعينها يعدها من أهل الزيغ والضلالة ، هى فرقة الجهمية وفرقة المعتزلة ..

وهو يصنف نفسه فى مذهب أهل الآثار فى مقابلة مذهب أهل الأهواء ...

الموضوعات

الصفات الخبرية :

بدأ المؤلف كتابه بإثبات النفس لله تعالى معتمداً على مثل قوله تعالى: « واصطنعتك لنفسى »[1] ، وقوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة »[2] .

وقول رسول الله ﷺ :

« يقول الله أنا مع عبدى حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » .

ثم يثبت الوجه لله تعالى بمثل قوله جل شأنه : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »[3] .

---

(١) سورة طه ، الآية ٤١

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٤

(٣) سورة الرحمن ، الآية ٢٧

وقوله ﷺ : « مثل المجاهد فى سبيل الله ابتغاء وجه الله مثل القائم المصلى حتى يرجع المجاهد » .

وناقش المؤلف الخبر الوارد « لا يقولن أحدكم لأحد قبح الله وجهك ووجها أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته » والنص الآخر « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته » .

وساق مجموعة روايات وأكد أن المراد أن وجه المضروب كوجه آدم ، ووقف عند الرواية القائلة : فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن . ورفضها لعلل ثلاث هى :

١ — إن الثورى قد خالف الأعمش فى إسناده ، فأرسله الثورى ولم يقل عن ابن عمر .

٢ — إن الأعمش مدلس لم يذكر أنه سمعه من حبيب بن أبى ثابت .

٣ — إن حبيب بن أبى ثابت أيضاً مدلس لم يعلم أنه سمعه من عطاء . .

وقال :

إن صح الخبر فمعناه عندنا أن إضافة الصورة إلى الرحمن من إضافة الخلق إليه ، لأن الخلق يضاف إلى الرحمن ، إذ الخلق خلقه ، وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن لأن الله صورها ، ألم تسمع قوله عز وجل « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه . . » (١) .

ثم ذكر المؤلف إثبات العين لله تعالى بمثل قوله جلا شأنه « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » (٢) وقوله ﷺ « إن الله ليس بأعور » .

---

(١) سورة لقمان — الآية ١١

(٢) سورة هود الآية ٣٧

وأثبت السماع والرؤية بمثل قوله تعالى « إنني معكما أسمع وأرى »(١) وقوله ﷺ « أيها الناس إنكم لاتدعون أصم ولاغائباً » .

وقال : نحن نقول : لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى ، وما فى السموات العلا وما بينهما من صغير وكبير ، . .

وتتوالى الأبواب على النحو التالى :

- إثبات اليد للخالق البارىء جل وعلا ..
- إثبات الأصابع لله عزوجل . .
- إثبات الرجل لله عز وجل . .
- استواء خالقنا العلى الأعلى . .
- بيان أن الله عزوجل فى السماء ..

وفى كل ذلك يؤكد المؤلف نفى التشبيه ويرفض المماثلة كما يرفض التعطيل .

ويقول : تعالى ربنا عن أن يكون وجه ربنا كوجه بعض خلقه ، وعن أن لا يكون له وجه ، إذ الله قد أعلمنا فى محكم تنزيله أن له وجهاً ذواه بالجلال والإكرام ، ونفى الهلاك عنه .

* * *

---

(١) سورة طه — الآية ٤٦

كلام الله تعالى :

فصل المؤلف موضوع الكلام الإلهي فبين أن الله تعالى كلم موسى من وراء حجاب وشرح صفة كلام الله بالوحي وشدة خوف السموات منه وساق هذا الحديث :

« إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا ، قال : فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، فإذا أتاهم جبريل فزع عن قلوبهم ، فيقولون : ياجبريل ماذا قال ربك ؟

قال : يقول الحق ، قال فينادون الحق .. الحق .. »

ثم ذكر أن الله تعالى يكلم عباده يوم القيامة من غير ترجمان ، وساق آيات القرآن وأحاديث المصطفى التي يستشهد بها على أن القرآن كلام الله الخالق ، وقوله غير المخلوق ..

• • •

الرؤية :

وتحدث المؤلف عن رؤية جميع المؤمنين لله تعالى يوم القيامة سواء منهم البر والفاجر ، وبين أن جميع أمة النبي ﷺ والمنافقين وبعض أهل الكتاب يرون الله عزوجل يوم القيامة ، يراه بعضهم رؤية امتحان لا رؤية سرور وفرح وتلذذ ..

وهذه الرؤية قبل أن يوضع الجسر بين ظهري جهنم ، ويخص الله عزوجل أهل ولايته من المؤمنين بالنظر إلى وجهه نظر فرح وسرور وتلذذ ..

ثم ذكر الأخبار المأثورة في إثبات رؤية النبي ﷺ لخالقه العزيز العليم ، ليلة الإسراء والمعراج ، وساق كلا من رأى ابن عباس . ورأى السيدة عائشة ، ورجح رأى ابن عباس القائل بثبوت الرؤية ، ونقد موقف عائشة في تعبيرها « من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » وزعم أنها قالت ذلك في وقت غضب ، وأن نفي عائشة لا يوجب علماً ، وأن إثبات ابن عباس هو الذي يوجب العلم ، فإن عائشة لم تحك عن النبي ﷺ أنه أخبرها أنه لم ير ربه ، وإنما تلت قوله تعالى « لا تدركه الأبصار » (١) وقوله جل شأنه « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا . . . » (٢) .

وقال المؤلف :

ومن تدبر هاتين الآيتين ووفق لإدراك الصواب علم أنه ليس في واحدة من الآيتين ما يستحق من قال إن محمداً رأى ربه — الرمي بالفرية على الله ، كيف بأن يقول قد أعظم على الله الفرية !! » .

وقد علق في الهامش الدكتور هراس محقق الكتاب قائلا :

« لكن لابد للمثبت أن يورد دليل الإثبات ، ومثبتو الرؤية لم يقدموا أدلتهم على ذلك » .

والنفي هو الأصل حتى يقوم دليل الإثبات . .

وقد عضدت السيدة عائشة رضي الله عنها مذهبها في النفي ببعض الآيات التي ظنت أنها تشهد لها . .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الشورى الآية ٥١

وإن عذر عائشة رضى الله عنها أنها كانت تستعظم ذلك وتستنكره ، ولهذا قالت لمسروق : لقد وقف شعرى مما قلت . .

وليس من حق المؤلف أن يعلم أمه الأدب . فهى أدرى بما تقول منه .

الشفاعة :

ذكر المؤلف شفاعة النبي ﷺ التى خص بها دون الأنبياء ، وأن النبي أول شافع وأول مشفع(١) ، وشفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته ، وأن الله يرضى نبيه فى الشفاعة يوم القيامة حتى يقر بأنه قد رضى بما أعطى فى أمته من الشفاعة .

واختار المؤلف أن الصديقين يتلون النبي ﷺ فى الشفاعة ، ثم سائر الأنبياء ثم الشهداء .

* * *

حكم مرتكب الكبيرة :

ساق المؤلف الأخبار التى رويت فى حرمان الجنة على من ارتكب بعض المعاصى التى لا تزيل الإيمان بأسره ، ورد على المعتزلة والخوارج واتهمهم بالجهل :

ومن هذه الأخبار قوله ﷺ :

« لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » .

---

(١) أول شافع أى أول طالب للشفاعة ، وأول مشفع أى أول مقبول الشفاعة .

« لا يدخل الجنة قاطع ».

« لا يدخل الجنة العاق لوالديه والديوث ورجلة النساء »[١] .

« من قتل نفسا معاهدة بغير حقها حرم الله عليه الجنة أن يشم ريحها » .

وذكر أن المراد أحد معنيين :

الأول : لا يدخل الجنة أى بعض الجنان أى التى هى أشرفها وأعلاها وأكثرها نعيما وسروراً وبهجة .

الثانى : كل وعيد فى الكتاب والسنة لأهل التوحيد فإنما هو على شريطة أى إلا أن يشاء الله أن يغفر ويصفح ويتكرم .

كما ساق المؤلف الأخبار التى تنفى دخول النار على من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان أو مات لا يشرك بالله شيئاً والتى احتج بها المرجئة فتوهموا أن مرتكب هذه الذنوب كامل الإيمان لا نقص فى إيمانه .

واختار أن المراد لا يدخلها دخول الأبد كدخول أهل الشرك والأوثان ، أو لا يدخلون النار موضع الكفار منها وإنما يدخلون مواضع أخرى للعذاب المنقطع الخاص بعصاة المؤمنين .

وبين جزاء آخر أهل النار خروجا منها ودخولا الجنة .

• • •

---

(١) أى المترجلة التى تتشبه بالرجال .

ملاحظات :

١ — الكتاب قائم على الروايات والآثار والاحتجاج بنصوص الكتاب والسنة ، وليس فيه جدل المتكلمين ولا تفصيلات القضايا العقلية ولا تشقيقات المسائل الكلامية .

وعبارات المؤلف — كما وصفها محقق الكتاب — فيها ركاكة وضعف في التأليف[١] .

٢ — أسلوب المؤلف خطابي يعتمد على إثارة العاطفة ، فيستخدم أساليب الاستفهام وأوصاف التشنيع وعبارات التعجب والاحتجاج باللازم على الخصم .

وعلى سبيل المثال فهو يقول :

وأما احتجاج الجهمية على أهل السنة والآثار في هذا النحو بقوله « ليس كمثله شيء » فمن القائل إن لخالقنا مثلا أو إن له شبها ؟ !

وهذا من التمويه على الرعاع ، والسفل يموهون بمثل هذا على الجهال ، يوهمونهم أن من وصف الله بما وصف به نفسه في محكم تنزيله أو على لسان نبيه ﷺ فقد شبه الخالق بالمخلوق ، وكيف يكون خلقه مثله ياذوى الحجا[٢] ؟ !

ويقول ردا على الجهمية :

« مقالتهم هذه توجب أن على أهل التوحيد الكفر بالقرآن وترك

---

(١) ص ١٦٢
(٢) ص ٢٨

الإيمان به ، وتكذيب القرآن بالقلوب والإنكار بالألسن ، فأقذر بهذا من مذهب !! وأقبح بهذه الوجوه عندهم، عليهم لعائن الله[1] !!

٣ — يكثر المؤلف من وصف الجهمية والمعتزلة بالكفر والفسق والضلالة ، ويدعو عليهم باللعنة .

وعلى سبيل المثال يقول :

• وزعمت الجهمية عليهم لعائن الله .

• ومعبود الجهمية عليهم لعائن الله كالأنعام التى لا تسمع ولا تبصر .

• تذكر بهت الجهمية وزورهم وكذبهم على علماء أهل الآثار ، ورميهم خيار الخلق بعد الأنبياء بما الله قد نزههم عنه وبرأهم منه .

• لا كما زعمت الكفرة من الجهمية المعطلة .

• لعله كان يحضر مجالس أهل الزيغ والضلالة من الجهمية المعطلة والقدرية المعتزلة .

وبعد — فالكتاب يمثل نهاية مرحلة الصراع السياسى وبداية مرحلة الصراع الفكرى التى أشرنا إليها فى حديثنا عن نشأة علم العقيدة .

ويعد مصدرا أساسيا لفكر ابن تيمية وأنصار الاتجاه السلفى الحديث .

---

(١) ص ٣٥

المواقف في علم الكلام

لعضد الدين عبد الرحمن الإيجي
المتوفى سنة ٧٥٦ هـ

المواقف فى علم الـكلام

المقـــدمة :

هذا الـكتاب[١] من تأليف عضد الدين القاضى عبد الرحمن بن أحمد الإيجى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ، وقد بين فى مقدمته أن أرفع العلوم وأعلاها ، وأنفعها وأجداها ، وأحراها بعقد الهمة بها ، وإلقاء الشراشر[٢] عليها ، وآداب النفس فيها ، وصرف الزمان إليها — علم الـكلام .

ورأى المؤلف فى زمنه أن هذا العلم قد اتخذ ظهريا ، وصار طلبه عند الأكثرين شيئا فريا ، فأراد أن يسلك بطلاب العلم مسالك التحقيق .

وتصفح المؤلف الـكتب المصنفة فى هذا الفن فلم ير فيها ما فيه شفاء العليل أو رواء لغليل ، سيما والهمم قاصرة والرغبات فاترة ، والدواعى قليلة ، والصوارف متكاثرة .

كما وجد المؤلف أن الـكتب المصنفة إما مختصرات قاصرة عن إفادة المرام ، وإما مطولات مدهشة للأفهام ، وأن من المؤلفين السابقين من غرضه نقل المذاهب والأقوال وتـكثير السؤال والجواب ولا يبالى إلام المآل .

ومنهم من يلفق مغالط لترويج رأيه ولا يدرى أن النقاد من ورائه .

ومنهم من يـكثر حجم الـكتاب بالبسط والتـكرار ليظن أنه بحر زخار .

---

(١) ط عالم الـكتب — بيروت ، ومكتبة المتنبي بالقاهرة ، ومكتبة سعد الدين بدمشق .

(٢) إلقاء الشراشر : الحرص عليه وحبه

ومنهم من هو كحاطب ليل وجالب رجل وخيل[1]، ولا يستعمل عقله ليعرف أغث ما يأخذه أم ثمين ؟!

وسخيف ما ألقاه أم متين ؟!

وامتدح المؤلف كتابه فقال :

فدانى الحدب على أهل الطلب ، ومن له فى تحقيق الحق أرب ، إلى أن كتبت هذا كتابا مقتصدا ، لامطولا مملا ولامختصرا مخلا ، أودعته لب الألباب ، وميزت فيه القشر من اللباب ، ولم آل جهدا فى تحرير المطالب ، وتقرير المذاهب ، وتركت الحجج تتبختر اتضاحا ، والشبه تتضاءل افتضاحا .

وأكد المؤلف أنه نبه على نكت هى ينابيع التحقيق ، وفقر تهدى إلى مظان التدقيق ، وأنه نظر من الموارد إلى المصادر ، وتأمل الخارج قبل أن يضع قدمه فى المداخل ، وأنه رجع القهقرى يتأمل فيما قدم هل فيه من قصور ؟ وهل يرى من فتور أو فطور ؟!

والكتاب مرتب على ستة مواقف ، والمواقف مقسمة إلى مراصد ، والمراصد مقسمة إلى مقاصد .

• • •

---

(١) الرجل بكسر الجيم الماشى ، والخيل الراكب ، والمعنى أنه يسوق الجميع ويصيح عليهم دون تمييز بين ما ينفع وما لا ينفع .

الموقف الأول :

في المقـــدمات

وتحدث المؤلف هنا عما يجب تقديمه في كل من التعريف والموضوع والفائدة والمرتبة والمسائل والتسمية .

وعرف علـــم الـكلام بأنه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه .

ثم تـكلم عن تعريف مطلق العلم وذكر ثلاثة مذاهب هي :

١ — أنه ضروري واختاره الإمام الرازي .

٢ — أنه ليس ضروريا ويعسر تحديده، وبه قال إمام الحرمين الجويني والغـــزالي .

٣ — أنه نظري .

ثم ذكر أقسام العلم إلى تصور وتصديق ، وانقسام العلم الحادث إلى ضروري ومـكتسب ، وحكى مذاهب العلماء في هذا المجال .

ثم قسم العلوم الضرورية إلى الوجدانيات وهي قليلة النفع في العلوم لأنها غير مشتركة،فلا تقوم بها حجة على الغير..وإلى الحسيات والبديهيات، والناس فيها فرق أربع :

١ — المعترفون بها وهم الأكثرون .

٢ — القادحون في الحسيات فقط .

٣ — القادحون في البديهيات فقط .

٤ — المنكرون لها جميعا وهم السوفسطائية .

ثم بسط القول في النظر ،فساق تعريفه وانقسامه إلى صحيح وفاسد ،

وبين أن النظر الصحيح يفيد العلم عند الجمهور، وشرح كيفية إفادة النظر للعلم، وتكلم عن النظر في معرفة الله تعالى وأنها واجبة إجماعا. لكنهم اختلفوا في طريق الثبوت هل هو السمع أو العقل ؟ وما أول واجب على المكلف ؟

ثم ذكر أنواع الاستدلال وهي إما بالكلي على الجزئي وهو القياس، وإما بالجزئي على الكلي وهو الاستقراء، وإما بجزئي على جزئي وهو التمثيل ويسميه الفقهاء قياسا.

وعد من الطرق الضعيفة قياس الغائب على الشاهد، لأنه لا بد من إثبات علة مشتركة، وهو مشكل لجواز كون خصوصية الأصل شرطا أو الفرع مانعا.

ثم عدد القضايا القطعية السبع وهي :

الأوليات، وقضايا قياساتها معها، والمشاهدات، والمجربات، والحدسيات، والمتواترات، والوهميات.

وعدد الظنية أربعا هي :

المسلمات والمشهورات والمقبولات والمقرونة بالقرائن.

ثم قسم المؤلف الدليل إلى عقلي بجميع مقدماته، أو نقلي بجميعها، أو مركب منهما.

وطرح سؤالا في نهاية هذا الموقف هو :

هل الدلائل النقلية تفيد اليقين ؟!

وجاء الجواب هكذا :

قيل : لا، لتوقفه على العلم بالوضع والإرادة.

والأول إنما يثبت بنقل اللغة والنحو والصرف، وأصولها مثبتة برواية الآحاد، وفروعها بالأقيسة، وكلاهما ظنيان.

والثانى يتوقف على عدم النقل (إلى معنى آخر شرعى) والاشتراك والمجاز والإضمار والتخصيص والتعميم والتأخير ، والكل لجوازه لانجزم بانتفائه بل غايته الظن .

ثم بعد الأمرين لابد من العلم بعدم المعارض العقلى ، وعدم المعارض العقلى غير يقينى ، إذ الغاية عدم الوجدان ، وهو لا يفيد القطع بعدم الوجود .

فقد تحقق أن دلالتها تتوقف على أمور ظنية فتكون ظنية ، لأن الفرع لا يزيد على الأصل فى القوة .

والحق أنها قد تفيد اليقين لقرائن مشاهدة أو متواترة تدل على انتفاء الاحتمالات » .

الموقف الثانى :

فى الأمور العامة

ويعنى المؤلف بالأمور العامة ما لا يختص بقسم من أقسام الموجود ، التى هى الواجب والجوهر والعرض .

وبدأه بهذا التساؤل : هل المعدوم ثابت أم لا ؟ وهل هناك واسطة بين الموجود والمعدوم — وهو الحال — أم لا ؟

ثم تكلم عن الوجود والعدم فى التعريف ، وأنه مشترك ، وأن الوجود نفس الماهية أو جزؤها أو زائد عليها ، والوجود الذهنى ، وهل المعدومات تتمايز أم لا ؟ وهل المعدوم شىء أم لا ؟

ثم بحث المراد بالشىء هل هو الموجود أو المعلوم ، أو هو للقديم حقيقة وللحادث مجازا ، أو هو الجسم .. الخ وانتهى إلى أن النزاع لفظى .

وتكلم عن الحال التى هو واسطة بين الموجود والمعدوم وقال : أثبته إمام الحرمين والقاضى منا وأبو هاشم من المعتزلة وبطلانه ضرورى وساق تعريفات القائلين بالحال ... ثم شرح الماهية تحت اثنى عشر مقصداً منها :

١ — تميز الماهية عما سواها ..

٢ — الماهية إذا أخذت مع قيد زائد تسمى مخلوطة وبشرط شىء ، ووجودها مما لا مرية فيه .

وإذا أخذت بشرط الخلو عن اللواحق سميت مجردة ، وبشرط لا شىء ، وأنها لا توجد فى الخارج وإلا لحقها الوجود والتعين فلم تكن مجردة .

٣ — قال أفلاطون يوجد من كل نوع فرد مجرد أزلى أبدى قابل للمتقابلات ..

٤ — الماهية إما بسيطة أو مركبة .

٥ — فى تقسيم الأجزاء .

٦ — الماهيات هل هى مجعولة أم لا ؟

٧ — المركب إما ذات وإما صفة ..

٨ — الماهية تقبل الشركة دون التعين ، فهو غيرها ، وقد اختلف فى التعين هل هو وجودى أم لا ؟

ثم انتقل المؤلف إلى الوجوب والإمكان والامتناع وساق أبحاث الواجب لذاته ، وأبحاث الممكن لذاته ، وأبحاث القديم ، وأبحاث الحديث وقال إن الحادث هو المسبوق بالعدم وعدم الحادث متقدم على وجوده ضرورة ..

ثم تكلم عن الوحدة والكثرة ، وعرف الوحدة بكون الشيء لا ينقسم إلى أمور تشاركه فى الحقيقة ، وعرف الكثرة بكون الشيء بحيث ينقسم إلى أمور تشاركه فى الحقيقة . .

وأكد مجموعة قضايا منها أن الاثنين هما المتغايران ، وأن الاثنين لا يتحدان ، وأن الاثنين عند أهل الحق ثلاثة أقسام :

المثلان والضدان والمتخالفان .

وختم الموقف الثانى بالحديث عن العلة والمعلول وبين أن المحتاج إليه يسمى علة ، والمحتاج يسمى معلولا ، وأن العلة إما جزء الشيء أو خارج عنه ، وأن الواحد بالشخص لا يعلل بعلتين مستقلتين ، وأنه يجوز عند المتكلمين استناد آثار متعددة إلى مؤثر واحد بسيط ، ومنعه الحكماء إلا بتعدد آلة أو شرط أو قابل . .

وشرح معنى الدور والتسلسل وحكم بأنهما من المحال . .

• • •

الموقف الثالث :

فى الأعراض

بدأ بمقدمة فى تقسيم الصفات إلى نفسية تدل على الذات دون معنى زائد ، ومعنوية وهى التى تدل على معنى زائد . .

ثم عرف العرض وذكر أقسامه عند المتكلمين والحكماء ، وشرح أحكامه بأنه لا ينتقل ، ولا يجوز قيام العرض بالعرض ، ولا يقوم العرض بمحلين ، ولذلك نجزم بأن السواد القائم بهذا المحل غير القائم بالمحل

الآخر ، وذهب الشيخ الأشعرى ومتبعوه إلى أن العرض لا يبق زمانين، وقالت الفلاسفة ببقاء الأعراض . .

ثم تكلم عن الكم وخواصه وأقسامه ، والزمان وحقيقته، والمكان ووجوده . .

ثم خاض المؤلف فى الكيفيات وقسمها إلى أربعة :

المحسوسة ، والنفسانية ، والمختصة بالكميات ، والاستعدادات، وقسم المحسوسة إلى الملموسات والمبصرات والمسموعات ... وتكلم فى الكيفيات النفسانية عن الحياة والموت والعلم والجهل ومراتب العقل ، والمزاج، والمحبة واللذة والألم . .

وتكلم فى الكيفيات المختصة بالكميات عن الزوجية والفردية والتثليث والتربيع والخط المستقيم . .

وأخيرا تكلم عن المقولات النسبية وأنواع الكون الأربعة والحركة والكم والكيف والعلة للحركة الطبيعية . .

وشرح خواص المضاف وتقسيمات الإضافة وأنواع التقدم بالعلية والذات والزمان والشرف والرتبة . .

• • •

الموقف الرابع :

فى الجـواهر

ويبدأ بتقسيم الحكماء الجوهر إلى ما كان حالا وهو الصورة، وما كان محلا لها وهو الهيولى ، وما كان مركباً منهما وهو الجسم ، وما كان متعلقاً بالجسم تعلق التدبير والتصرف وهو النفس وإلا فهو العقل . .

وهذا بناء على نفى الحكماء للجوهر الفرد . .

وقال المتكلمون لا جوهر إلا المتحيز ، فإما أن يقبل القسمة وهو الجسم أولا يقبلها وهو الجوهر الفرد . .

ثم شرح حقيقة الجسم وأجزاءه ، وأثار بعض القضايا الهندسية كالمربع والمثلث والدائرة ، والضلع ، والقطر ، والوتر ، والمحيط . .

ثم تكلم عن الأفلاك وقال إن عددها بالرصد تسعة وهى فلك الأفلاك وهو المسمى بالفلك الأطلسى ، وبالعرش المجيد فى لسان الشرع ، وتحته فلك الثوابت ثم فلك زحل ثم فلك المشترى ثم فلك المريخ ثم فلك الشمس ثم فلك الزهرة ثم فلك عطارد ثم فلك القمر وهو السماء الدنيا ، وعاض فى حركة الأفلاك والفصول الأربعة والبروج ،وخسوف القمروكسوف الشمس ، والعناصر الأربعة وكروية الأرض وتضاريسها وطبقاتها . .

وشرح معانى المطر والثلج والطل والصقيع والدخان والرعد والبرق والصاعقة والشهب والأذناب والنيازك . .

وقسم المعادن إلى متطرقة كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وإلى غير متطرقة كالزيبق والزرنيخ . .

وقسم المزاج إلى :

الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

وقسم النفس إلى :

النباتية والحيوانية والإنسانية .

وساق الأدلة على حدوث الأجسام وصحة فناء العالم وأن الجسم لا يخلو عن العرض وضده ، وأن الأبعاد متناهية سواء كانت فى ملاء أو خلاء . .

وختم بمجموعة مباحث تتعلق بالنفس والعقل . .

• • •

الموقف الخامس :

فى الإلهيات

وقد شرح المؤلف هذا الجانب فى مجموعة اتجاهات ، سماها مراصد ، هى على النحو التالى :

١ — إثبات الصانع :

وذكر مسالك المتكلمين والحكماء فى الاستدلال على وجود الله تعالى بحدوث العالم وإمكانه . .

وأشار إلى أن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات ، فهو سبحانه منزه عن المثل والند . .

وتكلم عن أن وجوده تعالى نفس ماهيته أو زائد عليها ؟!

وأنه مساو لوجود الممكنات أو مخالف ؟!

٢ — فى تنزيه تعالى :

وأراد بالتنزيه الصفات السلبية وهى أنه تعالى ليس فى جهة ولا مكان، وأنه تعالى ليس بجسم ، وليس جوهراً ولا عرضاً ، وليس فى زمان ، وأنه تعالى لا يتحد بغيره ولا يحل فى غيره ، وأنه تعالى يمتنع أن يقوم بذاته حادث ، ولا يتصف بشىء من الأعراض . .

٣ — فى توحيده تعالى :

وهو أنه يمتنع وجود إلهين مستجمعين لشرائط الإلهية وساق دليل المتكلمين والحكماء . .

٤ — فى الصفات الوجودية :

تكلم عن إثبات الصفات على وجه عام ثم تكلم عن القدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام . .

وشرح مسألة القرآن هل هو مخلوق أو قديم ؟ ثم ذكر صفات اختلف فيها وهى :

البقاء هل هو زائد على الوجود أم لا ؟ !

والقدم هل هو قديم بنفسه أم بقدم زائد ؟ !

والاستواء والوجه واليد والعينان والجنب والقدم والأصبع واليمين هل هذه صفات أو معان مجازية ؟ !

٥ — فيما يجوز عليه تعالى :

وبحث هنا موضوعين :

الأول : الرؤية وجعل الحديث عنها فى مقامات ثلاثة :

(١) الصحة فذهب الأشاعرة إلى أنه تعالى يصح أن يرى ، ومنعه الأكثرون .

(ب) وقوع الرؤية ، والآراء ثلاثة : يصح ويرى ، لا يرى ولا يصح ، يصح ولا يرى . .

(ج) شبه المنكرين ، وقسمها إلى عقلية ونقلية .

الثانى : فى العلم بحقيقة الله تعالى ، والكلام فى الوقوع والجواز ، أما الوقوع فإن حقيقة الله تعالى غير معلومة للبشر ، وعليه جمهور المحققين، وقد خالف فيه كثير من المتكلمين .

وأما الجواز ، ففى جواز العلم بحقيقة الله تعالى خلاف ، ومنعه الفلاسفة .

٦ — فى أفعاله تعالى :

وقد عالج مجموعة قضايا مهمة هى :

• أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها ، وقالت المعتزلة بقدرة العبد وحدها ، وقالت طائفة بالقدرتين .

• التوليد فالمعتزلة لما أسندوا أفعال العباد إليهم ورأوا فيها ترتباً قالوا بالتوليد ، وهو أن يوجب فعل لفاعله فعلا آخر ، نحو حركة اليد والمفتاح وقد أبطله الأشاعرة لاستناد جميع الممكنات إلى الله تعالى ابتداء . . .

• البحث عن أمور صرح بها القرآن وانعقد عليها الإجماع وهم يؤولونها وهى :

— الطبع والختم والأكنة . .

— التوفيق والهداية . .

— الأجل وهل المقتول ميت بأجله أم لا ؟

— الرزق هل هو كل ما ساقه الله إلى العبد أم هو الحلال فقط ؟

— الأسحار فالمسحر هو الله ، وأما عند المعتزلة فمختلف فيه هل هو فعل مباشر من العبد أم هو متولد من فعل الله ؟

• إرادة الله تعالى لجميع الكائنات أو المأمور به فقط ؟

• الحسن والقبح شرعيان أو عقليان ؟

• تكليف ما لا يطاق جائز عند الأشاعرة ومنعه المعتزلة لقبحه ؟

• ذهب الأشاعرة إلى أن أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض ، وخالفهم المعتزلة . .

٧ — فى أسماء الله تعالى :

تكلم المؤلف على أن الاسم غير التسمية ، وبين أقسام الاسم ، وشرح الأسماء التسمة والتسعين وقال عقب ذلك : فهذه هى الأسماء الحسنى ، نسأل الله ببركتها أن يفتح علينا أبواب الخير ، ويغفر لنا ، ويرحمنا ، إنه هو الغفور الرحيم .

* * *

الموقف السادس : فى السمعيات :

وحصر المؤلف السمعيات فى أربعة موضوعات هى :

١ — النبوات .　　　　٢ — المعاد .

٣ — الأسماء والأحكام .　　　　٤ — الإمامة .

وفى موضوع النبوات شرح معنى النبى وحقيقة المعجزة وكيفية حصولها وإمكان البعثة ، وإثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وإعجاز القرآن ، وعصمة الأنبياء ، والمفاضلة بين الأنبياء والملائكة . .

وختم هذا الموضوع بكرامات الأولياء ، وأنها جائزة عند أهل السنة ، وواقعة خلافا للأستاذ أبى إسحق والحليمى . .

وفى موضوع المعاد شرح جوانب متعددة وعرض لقضايا كثيرة مثل إعادة المعدوم ، وحشر الأجساد ، والجنة والنار هل هما مخلوقتان ؟

والثواب والعقاب هل هما واجبان أم أن الثواب فضل والعقاب عدل ؟

وحكم مرتكب الكبيرة وعصاة المؤمنين ، ورأى المعتزلة فى الإحباط أى إحباط الطاعات بالمعاصى ، وشفاعة سيدنا محمد ﷺ ، والتوبة وحقيقتها وأحكامها ، وإحياء الموتى فى قبورهم ، والصراط والميزان والحساب وقراءة الكتب والحوض المورود ، وشهادة الأعضاء . . .

وفى موضوع الأسماء والأحكام تكلم عن حقيقة الإيمان وهل يزيد وينقص ؟

وشرح حكم المخالف للحق من أهل القبلة هل يكفر أم لا ؟

وذكر تكفير كل فرقة لمخالفيها ، وأنكر ذلك ، ورد دعاوى التكفير ، وأثبت أن جمهور المتكلمين والفقهاء على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وفى موضوع الإمامة ناقش وجوب نصب الإمام ، وشروط الإمامة ، وما تثبت به ، ومن هو الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ وحكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل . .

وأوجب المؤلف تعظيم الصحابة كلهم والكف عن القدح فيهم لأن الله عظمهم وأثنى عليهم فى غير موضع من كتابه ، والرسول ﷺ قد أحبهم وأثنى عليهم فى أحاديث كثيرة ..

• • •

خاتمة المواقف :

جاءت خاتمة الكتاب فى ذكر الفرق التى أشار إليها الرسول ﷺ بقوله « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة ، وهى ما أنا عليه وأصحابى » .

وجعل المؤلف كبار الفرق ثمانية هى :

المعتزلة — الشيعة — الخوارج — المرجئة النجارية — الجبرية — المشبهة — الناجية .

وحدد المؤلف الفرقة الناجية بأنها الأشاعرة والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة » .

وساق اعتقادهم ثم قال : ولانكفر أحدا من أهل القبلة إلا بما فيه نفى للصانع القادر العليم ، أو شرك ، أو إنكار للنبوة ، أو ما علم مجيئه عليه السلام به ضرورة ، أو لمجمع عليه كاستحلال المحرمات .

وأما ما عداه فالقائل به مبتدع غير كافر ، وللفقهاء فى معاملاتهم خلاف ، هو خارج عن فننا هذا ..

• • •

تعقيب :

تحمل عضد الدين الإيجى حملا ثقيلا ، واستوعب تراثا ضخما ، وحقق قضايا عدة ، وعرض لمذاهب شتى ، شملت العلم فى فنونه كلها ..

لقد خاض فى المنطق حين تكلم عن النظر والتصور والتصديق وأنواع الاستدلال .

وخاض فى الفلسفة حين تكلم عن الجوهر والعرض ، والوجوب والإمكان والحدوث ، والوحدة والكثرة ، والعلة والمعلول .

وخاض فى الفلك حين تكلم عن الكواكب والنجوم وحركاتها ، والكسوف والخسوف .

وخاض فى الرياضيات حين تكلم عن المثلث والمربع والدائرة والخط المستقيم .

وخاض فى الجغرافيا حين تكلم عن كروية الأرض وطبقاتها ومعادنها والعناصر الأربعة ..

وخاض فى الكيمياء حين تكلم عن المركبات والعناصر ..

وخاض فى الطبيعة حين تكلم عن الصوت والضوء ..

وخاض فى علم النفس حين تكلم عن النفس والعقل والمزاج واللذة والألم ..

بالإضافة إلى كل علوم الشريعة واللغة .

وساق عضد الدين الإيجى كل مذاهب الفلاسفة والمتكلمين فى قضايا العقيدة بأمانة فى النقل والعرض ، ودقة فى المناقشة والنقد .

الأمر الذى يدل على عقليته الجبارة ، وقدرته الفائقة ، ومهارته العالية .

ومع ذلك فإن التساؤل المطروح هو :

هل قضايا العقيدة متوقفة على هذه المقدمات البعيدة والغريبة التى استوعبت أربعة مواقف من ستة ، هى مجموعة مباحث الكتاب ؟!

أظن أن الأمر أهـــون من ذلك ، وأن أمور العقيدة فى وضوحها ويسرها لفى غنى عن هذه المسالك الوعرة ..

ولهذا وقف العلماء من هذا الاتجاه الكلامى الموغل فى الفلسفة موقفين :

موقف الرفض ، وموقف القبول ..

وعلى سبيل المثال فإن الشيخ السنوسى فى عقيدته الصغرى يقول :

وليحذر المبتدىء جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التى حشيت بكلام الفلاسفة ، وأولع مؤلفها بنقل هوسهم وما هو كفر صراح من عقائدهم ، التى ستروا نجاستها بما يلبهم على كثير ، من اصطلاحاتهم وعباراتهم التى أكثرها أسماء بلامسميات .

وذلك ككتب الإمام الفخر فى علم الكلام ، وطوالع البيضاوى ، ومن حذا حذوهما فى ذلك .

وقل أن يفلح من أولع بصحبة كلام الفلاسفة أن يكون له نور إيمان فى قلبه أو لسانه .

وفى حاشيته على الكتاب قال الشيخ محمد الدسوقى :

« أو من سلك مسلكهما (الفخر الرازى والبيضاوى) كالأرموى والعلامة السعد والعضد وابن عرفة » .

ثم نقل عن البرهان اللقانى قوله فى هداية المريد :

إن كلام الأوائل كان مقصورا على الذات والصفات والنبوات والسمعيات ، فلما حدثت طوائف المبتدعة كثر جدالهم مع علماء الإسلام ، وأوردوا شبها على ما قرره الأوائل ، وخلطوا تلك الشبه بكثير من

قواعد الفلاسفة ليستروا ضلالهم ، فتصدى المتأخرون كالفخر ومن ذكر معه لدفع تلك الشبه ، وهدم تلك القواعد ، فاضطروا لإدراجها فى كتبهم لأجل أن يتمكنوا من الرد عليها ، ببيان المقصود منها ، وإيضاح مفاسدها .

فظهر أنهم معذورون فى إدراجها فى كتبهم ، ولا لوم عليهم فى ذلك ، ولا يصح توجه الذم إليهم .

وتحذير المتأخرين عن تعاطى كتبهم إنما هو للقاصرين الذين لا يصلون لفهمها ، ثم نقل عن الشيخ الملوى أنه لا اعتراض على الإمام الفخر الرازى ومن معه لأنهم فعلوا ذلك ليتمكنوا من الرد على طوائف المبتدعة ، فقد فعلوا المناسب فى ذلك الزمان »(١) .

---

(١) حاشية على شرح أم البراهين ، تأليف محمد بن أحمد بن عرفه الدسوقى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ وبهامش شرح أم البراهين لمحمد بن يوسف السنوسى الحسينى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ ص ٧٠ ط الحلبى سنة ١٣٥٨ هـ سنة ١٩٣٩ م .

شرح العقيدة الطحاوية

للعلامة ابن أبي العز الدمشقي

المتوفى ٧٩٢ هـ

- تقــــديم
- قضية التوحيد
- نبوة سيدنا محمد ﷺ
- رؤية الله تعالى
- مسائل عقدية
- ملاحظات

شرح العقيدة الطحاوية

تقـديم :

هذا الكتاب من أهم كتب العقيدة السلفية بين طلاب العلم في المملكة العربية السعودية .

والكتاب يقوم على متن وشرح .

أما المتن فهو المسمى « العقيدة الطحاوية » نسبة إلى الإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الطحاوي من قرية طحا بصعيد مصر ، وله سنة ٢٣٩ هـ وتوفي سنة ٣٢١ هـ .

أما الشرح فقد ظل مجهولا حينا من الدهر ثم تبين أنه لصدر الدين محمد ابن علاء الدين علي بن محمـــد بن أبي العز الدمشقي ، المولود سنة ٧٣١ هـ والمتوفى بدمشق سنة ٧٩٢ هـ على الأرجح .

وكلا الإمامين حنفي المذهب، قال الشارح في مقدمته : « وممن قام بهذا الحق (حفظ أصول الدين) من علماء المسلمين الامام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي ، تغمده الله برحمته ، بعد المائتين ، فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين ، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .

فأخبر — رحمه الله — عما كان عليه السلف ، ونقل عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وصاحبيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحميري الأنصاري ، ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم — ما كانوا يعتقدون من أصول الدين ، ويدينون به رب العالمين »[١] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية — تحقيق جماعة من العلماء ص ٦٩ ط المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ بيروت .

ونعى الشارح على البدع والتحريفات التي ظهرت بعد عصر الراشدين، ورفض مسألة التوفيق بين العقل والنقل على طريقة المتكلمين والفلاسفة، وسمى عقلياتهم جهليات.

قضية التوحيد :

ثم بدأ الشارح التعليق على عبارة المؤلف :

« نقول في توحيد الله معتقدين — بتوفيق الله — أن الله واحد لاشريك له » .

فبين أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل .

واختار الشارح أن أول واجب على المكلف هو الشهادتان ، وليس النظر ، ولا القصد إلى النظر ، ولا الشك .

وقسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع :

- توحيد الأسماء والصفات .
- توحيد الربوبية .
- توحيد الإلهية .

وناقش نفاة الصفات في قولهم :

إن إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب .

وذهب إلى أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال . فإن الثنوية من المجوس ، والمانوية القائلين بالأصلين ، النور والظلمة ، وأن العالم صدر عنهما — متفقون على أن النور خير من الظلمة ، وهم متنازعون في الظلمة ، هل هي قديمة أو محدثة ، فلم يثبتوا ربين متماثلين .

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل يتفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون باسم الآب والابن وروح القدس، إله واحد، وقولهم في التثليث متناقض في نفسه وقولهم في الحلول أشد منه.

ويرى الشارح أن توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس..

ويسوق اتفاق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ثم يستدرك بأن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملا يراد به المعنى الصحيح.

ويؤكد الشارح أن النفاة المعطلة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ولكن أساءوا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الأمر..

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه.

فكلا الفريقين زادوا على الحق فضلوا..

وأتهم الشارح المتكلمين بأنهم أدخلوا في أسماء الله تعالى لفظ القديم، وأن كثيراً من السلف والخلف ينكرون ذلك.

ويقسم الشارح إرادة الله تعالى إلى نوعين:

• إرادة قدرية كونية وهي المشيئة العامة الشاملة لجميع الموجودات..

• إرادة دينية شرعية وهي المتضمنة للمحبة والرضا..

وحول تعلق الحوادث بذات الرب تعالى يرى ابن أبي العز أنه لم يرد نفي لذلك ولا إثبات في كتاب ولا سنة، وأن هذه المسألة فيها إجمال:

فإن أريد بالنفى أنه سبحانه لا يحل فى ذاته المقدسة شىء من مخلوقاته المحدثة ، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نفى صحيح . .

وإن أريد به نفى الصفات الاختيارية ، من أنه لا يفعـــل ما يريد ، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان كما يليق بجلاله وعظمته ، فهذا نفى باطل . . » [١]

ويقبل الشارح تسلسل الحوادث أزلا وأبداً ، فأفعال الله تعالى دائمة فى الأبد ، كلما انقضى لأهـــل الجنة نعيم أحدث لهم نعيما آخر لا نفاد له ، وأن كل فعل من طرف الأزل مسبوق بفعل آخر ، ويرفض أن يكون الله موجودا وحده ولا مخلوق معه أصلا ، لأن الفعل أ كمل من عدم الفعل ، وأن الفعل والإرادة متلازمان . .

ويسمى هذا التسلسل بالتسلسل الواجب الذى دل عليـــه العقل والشرع [٢] . .

ويحرص الشارح على إثبات الجهة والفوقية لله تعالى ويقول :

لو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه ، غير مخالط للعالم ، لكان متصفا بضد ذلك ، وضد الفوقية السفول ، وهو مذموم على الإطلاق ، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده . .

ولو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها ،

---

(١) ص ١٢٩

(٢) راجع ص ١٣٥

ويسوق الشارح عشرين نوعا من النصوص يراها دليلا على مذهبه ، منها قوله تعالى « وهو العلى الكبير » . .

* * *

نبوة سيدنا محمد ﷺ :

يرى ابن أبي العز الدمشقي أن دلائل نبوة الأنبياء غير محصورة في المعجزات ، وأن من عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لفعله — علم يقينا أنه ليس بشاعر ولا كاهن . .

ويؤكد الشارح أن إنكار رسالة سيدنا محمد ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى ، ونسبة له سبحانه إلى الظلم والسفه لأنه أيده ونصره ومكن لدينه ودولته . .

وفرق بين النبي والرسول بأن من نبأه الله بخبر السماء ، إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول ، فالرسول أخص من النبي . .

وشرح ابن أبي العز مسألة التفاضـــل بين الأنبياء ، وأثبت لسيدنا محمد ﷺ أعلى مراتب المحبة وهي الخلة ، ورفض قول من قال إن الله خص إبراهيم بالخلة ومحمداً بالمحبة ، وقال إن الخلة تخص إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام ، واستدل بالحديث الشريف « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليـــلا » وبالحديث الآخر « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبابكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن » .

أما المحبة فهي عامة لكل المؤمنين . .

ثم تكلم عن ختم النبوة وعموم الرسالة المحمدية ، والإسراء والمعراج، والحوض والشفاعة . . إلخ .

• • •

رؤية الله تعالى :

عد ابن أبي العز مسألة الرؤية من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ، وجعلها الغاية التي شمر إليها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون .

وساق مذاهب المخالفين لأهل السنة من الجهمية والمعتزلة والخوارج والإمامية ، ورد استدلال المعتزلة بقوله تعالى « لن تراني» وقوله جل شأنه « لا تدركه الأبصار » ، وأكد أن أحاديث الرؤية رواها نحو ثلاثين صحابيا .

ثم حدد محل الاتفاق بين أهل السنة ، وهو رؤية أهل الجنة لربهم ، لكنهم اختلفوا في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال :

١ — أنه لا يراه إلا المؤمنون .

٢ — أنه يراه أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك .

٣ — أنه يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار .

ثم أكد الشارح أن الأمة اتفقت على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا محمد ﷺ خاصة ، منهم من نفى رؤيته بالعين ، ومنهم من أثبتها له ﷺ .

وساق رأي القاضي عياض بأنه ليس هناك قاطع ولا نص في رؤية

الرسول لربه بعينه ، والمعول فيه على آيتى النجم ، والتنازع فيها مأثور ، والاحتيال لها ممكن .

• • •

مسائل عقدية :

وتوالت المسائل والموضوعات فشرح ابن أبى العز :

— ميثاق بنى آدم .

— القضاء والقدر .

— الإيمان بالملائكة .

— الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين .

— التفاضل بين الأنبياء والملائكة ، وعدها من فضول المسائل ، ونقل أن أبا حنيفة توقف فى الجواب عنها .

— حكم مرتكب الكبيرة .

— الإيمان والإسلام .

— طاعة ولى الأمر ولو كان جائرا ما لم يأمر بمعصية .

— عذاب القبر ونعيمه .

— البعث والحساب والجزاء .

— دعاء الأحياء وصدقاتهم للأموات .

— كرامة الأولياء .

— أشراط الساعة .

وختم الكتاب بتعريف موجز لفرق المعتزلة والجهمية والجبرية

والقدرية ، وشبه علماء المعتزلة باليهود ، وشبه عباد الصوفية بالنصارى .

* * *

ملاحظات :

١ — إن عقيدة الطحاوى محل قبول لدى جمهور العلماء سلفا وخلفا — كما قال السبكى — لكن الشارح ابن أبى العز أسقط عليها إسقاطات لا يعرفها الطحاوى ولا يقصدها .

فمنذ أول عبارة للطحاوى وهى :

نقول فى توحيد الله معتقدين — بتوفيق الله — أن الله واحد لا شريك له .

إذا بالشارح يتكلم عن أول واجب على المكلف ويرجح أنه الشهادتان ، ثم يقسم التوحيد إلى ثلاثة انواع ، هى توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ، ويثبت الجهة والفوقية لله تعالى ، ويخوض فى أشياء ليست محل قبول لدى جمهور العلماء ، وهى تمثل اجتهاد فرد ، يؤخذ منه ويرد عليه .

وقد وقع الشارح فى حيص بيص ومأزق شديد حين وقف أمام قول الطحاوى :

« وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات » .

وأخذ الشارح يسوق تفسيرات ويدخل فى تأويلات حتى لا يتناقض

مع رأيه فى الجهة والفوقية ، وزعم أنه كان الأولى بالشيخ الطحاوى ترك هذه الألفاظ(١) ..

٢ — إذا كان ابن أبى العز قد نعى على المتكلمين اصطلاحاتهم وتشقيقاتهم فقد وقع فيما نقده ، وخاض فيما نهى عنه ، وكان منهجه فى معالجة قضايا الخلاف قائما على المنهج الكلامى(٢) .

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أن أنصار الاتجاه السلفى يحتجون دائما فى مواجهة مخالفيهم بأن ذلك لم يرد أو لم يتكلم فيه الصحابة أو لم يعرفه السلف . .

ونسوق موقفا لابن أبى العز لعله يكون أبلغ رد على هؤلاء المتسلفين :

ففى مسألة قراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت قال الشارح :

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج ، فإن قيل :

هذا لم يكن معروفا فى السلف ، ولا أرشدهم إليه النبى ﷺ ؟

فالجواب :

إن كان مورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصوم والدعاء قيل له : ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟

وليس كون السلف لم يفعلوه — حجة فى عدم الوصول . .

ومن أين لنا هذا النفى العام ؟

فإن قيل : فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة ؟

---

(١) راجع ص ٢٣٨ : ٢٤٥

(٢) راجع ما قلناه سابقا فى نشأة علم العقيدة وتطوره

قيل : هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميته ، فأذن له فيه ، وهذا سأله عن الصوم عنه ، فأذن له فيه ، ولم يمنعهم عما سوى ذلك .

وأي فرق بين وصول ثواب الصوم — الذي هو مجرد نية وإمساك — وبين وصول ثواب القراءة والذكر . . ؟ »[١] .

وبعـــد :

فالكتاب فيه عرض لكافة عقائد الدين ، و كثير من قضاياه على اتفاق لدى أهل السنة ، ومواطن الاختلاف تكمن في مسألة الأسماء والصفات ، وإثبات جهة العلو والفوقية ، والكلام الإلهي الذي فسره بالصوت والحرف .

---

(١) ص ٥١٧

رسالة التوحيد

للأستاذ الإمام محمد عبده

١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ

- المؤلف وسبب التأليف
- المقـــدمات
  - — علم التوحيد ومنهجه
  - — عصر الخلافة
  - — حملة المشاعل
  - — موقف الفلاسفة
  - — مذهب الأستاذ الإمام
- الإلهيات
- النبوات
- ترقي الأديان بترقي الإنسان
- انتشار الإسلام
- ولنا ملاحظات

رسالة التوحيد

المؤلف :

هو الأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٦ — ١٣٢٣هـ) مفتى الديار المصرية، وتلميذ الإمام جمال الدين الأفغانى، وشيخ السيد محمد رشيد رضا . .

سبب التأليف :

شرح الشيخ محمد عبده في مقدمة رسالته[١] أسباب التأليف ومراحل التدوين، فذكر أنه أبعد عن مصر سنة ١٢٩٩هـ وعاش فى بيروت، فدعى لإلقاء دروس فى المدرسة السلطانية، فأملى على تلاميذه ما فتح الله به عليه فى علم التوحيد . .

فلما عاد إلى مصر نسى ما أملى، وذهب عن خاطره جميع ما ألقى، ثم بدا له أن يشغل أوقات فراغه بمدارسة شىء من علم التوحيد، فأرسل إلى بعض تلاميذه يطلب منه ما سجله فى دفتره و تلقاه بين يديه . .

وحين وصلته تلك الأمالى قرأها فإذا المكتوب قريب مما أحب، فيه مسلك السلف، بلا عيب فى سيرة آراء الخلف. لكنه يحتاج إلى بسط بعض عباراته، وتحرير بعض مقدماته، وزيادة ما غفل، وحذف ما فضل . .

---

(١) تحقيق محمود أبو رية ط الرابعة — دار المعارف بمصر

المقـــدمات :

رسالة التوحيد تقوم على مجموعة مقدمات وبعض مباحث تتعلق بالإلهيات والنبوات .

١ — علم التوحيد ومنهجه :

فى المقدمات عرف علم التوحيد بأنه علم يبحث فيه عن وجود الله تعالى وما يجب أن ينسب له من صفـــات ، وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه ...

وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم ..

ثم ذكر أن علم تقرير العقائد كان معروفاً عند الأمم ، وأن القائمين على أمر الدين قبل الإسلام قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى ،وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته . .

فلما جاء القرآن نهج بالدين منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فأقام الدعوى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان ..

وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل ، وأجمع المسلمون — إلا من لا يعتد بعقله ولا دينه — أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل . .

٢ — عصر الخلافة :

ويبدأ الشيخ محمد عبده يؤرخ لنشأة علم التوحيد فأكد أن النبي ﷺ كان المرجع إلى الحيرة ، والسراج فى ظلمات الشبه ، ومضى زمنه وزمن الخليفتين أبى بكر وعمر ولم يكن هناك خلاف فى أصول العقائد ، وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام ، وكان الناس يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ويرون أن له معنى غير ما يوهمه ظاهر اللفظ . .

ثم حدث ما حدث فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وفتح الباب لتعدى الحدود ، وتلاعبت الشهوات بالعقول ، وأسلم بعض اليهود لبث الفتنة كعبد الله بن سبأ . .

وتوالت الأحداث وكانت الحروب بين المسلمين فى عهد الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، وانصدع بناء الجماعة وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة ، وافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين . .

٣ — حملة المشاعل :

يرى الشيخ أن هذه الخلافات السياسية لم تقف فى سبيل الدعوة الإسلامية ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً فى الأطراف النائية عن مثار النزاع . .

واشتغل العلماء بأصول العقائد والأحكام اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا يغض فيه من نظر الفكر . . ومن أشهرهم الحسن البصرى . .

وكانت أول مسألة ظهر فيها الخلاف مسألة الاختيار ، واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية . ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب ، ثم امتدت الخلافات إلى إثبات صفات المعانى للذات الإلهية أو نفيها عنها ، وإلى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الأحكام الدينية . .

والتحق بالإسلام أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم من أفكار المانوية وكتب اليونان ، ومن لا دين له من الفرق الفارسية ، فظهر الإلحاد ، وثارت الشهوات ، وتطلعت رءوس الفتنة فى العهد العباسى . .

وظل الأمر كذلك حتى جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف ، وسطاً بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر .

وارتاب فى أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء كالإمام الجوينى والإسفرايينى وأبى بكر الباقلانى وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة . .

فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان :

— قوة الواقفين عند الظواهر .

— وقوة الغالبين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر .

٤ — موقف الفلاسفة :

ثم تحدث الشيخ محمد عبده عن مذاهب الفلاسفة ، وأكد أن العقل عمل التكريم من القرآن والسنة ، لكن هؤلاء الفلاسفة غلبهم أمران :

الأول : الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا عن أرسطو وأفلاطون ..

الثانى : الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين ، زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم ، مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فقال حماة العقائد عليهم .

وجاء الغزالى ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات واشتدوا فى نقده ، فسقطت منزلتهم من النفوس ، ونبذتهم العامة ، ولم تحفل بهم الخاصة ، وكان هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمسائل الفلاسفة فى كتب المتأخرين ، كما نراها فى كتب البيضاوى والعضد وغيرهم .

٥ — مذهب الأستاذ الإمام :

وانتهى الشيخ محمد عبده إلى تقرير هذه الحقيقة :

والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد ، لا دين تفريق فى القواعد .

. العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه . . وما وراء ذلك فنزغات شياطين أو شهوات سلاطين .

والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطئه . .

الإلهيات :

بدأ الشيخ حديثه عن الإلهيات بتقسيم المعلوم إلى ثلاثة أقسام :
ممكن لذاته ، وواجب لذاته ، ومستحيل لذاته . .

وشرح حكم كل قسم وأكد أن الممكن لا يوجد إلا بسبب ولا ينعدم إلا بسبب ، وأن وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب ، ثم تكلم عن الصفات السمعية التى جاءت على لسان الشرع ولا يحيلها العقل إذا حملها على ما يليق بواجب الوجود .

ونبه الشيخ إلى أن الفكر فى ذات الله وصفاته للوصول إلى حقيقة الذات والصفات ممتنع على العقل البشرى لانقطاع النسبة بين الموجودين ، وليس من شأننا أن نبحث فى الكيفية . .

ثم انتقل الشيخ إلى الحديث عن أفعال الله جل شأنه ، وبين أنها صادرة عن علمه وإرادته ، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ، ولا شىء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، وقسم الفرق الإسلامية فى هذا الجانب إلى فريقين :

١ — فريق بالغ فى الإيجاب على الله حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

٢ — وفريق نفى التعليل عن أفعاله سبحانه وغلا حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلبا ، يبرم اليوم ما نقضه بالأمس ، ويفعل غدا ما أخبر بنقيضه اليوم ، أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) .

ويرى الشيخ أن الجميع متفقون على أنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله والكذب فى أقواله ، وأن وجوب الحكمة فى أفعاله تعالى تابع لوجوب الكمال فى علمه وإرادته ، وأن وجوب تحقق ما وعد وأوعد به تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه . .

فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه . .

ثم يلخص الشيخ محمد عبده مسألة أفعال العباد فى اتجاهين :

الأول : أن المؤمن يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الكائنات ، وأن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد ، تصرفه على مقتضى علمه وإرادته .

الثانى : أن المؤمن يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية — قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله . .

وعلى هذين الاتجاهين قامت الشرائع واستقامت التكاليف ، أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل إليه العقول .

ثم ختم الشيخ محمد عبده مباحثه فى الإلهيات بالكلام عن حسن الأفعال وقبحها وأكد أن الإنسان بفطرته يميز بين الجمال والقبح ، ورأى أنه لا مانع شرعا أو عقلا من أن يصل العقل بإنسان ما إلى معرفة الله وصفاته وقدسية جلاله ، والفضائل والرذائل التى تؤدى إلى السعادة أو الشقاء بعد الموت . .

لكن ذلك لن يكون حالا لعامة الناس ، وقد سلط الله على الإنسان ثلاث قوى هي الذاكرة والمخيلة والمفكرة ، والناس فيها مختلفون ، تتباين آثارها عليهم .

وليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ، ثم إن من أحوال الآخرة ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده ، لهذا كان العقل الإنساني محتاجا إلى نبي من جنسه ليفهم منه وعنه ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وقد سماه معينا يستعين به الإنسان في تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد ..

النبوات :

ساق الإمام محمد عبده مجموعة بحوث تحت عناوين :

- الرسالة العامة .
- حاجة البشر إلى الرسالة .
- إمكان الوحي .
- وقوع الوحي والرسالة .
- وظيفة الرسل عليهم السلام .

وتكلم في هذه البحوث عن اصطفاء الله لرسله ، وتأييدهم بالمعجزة المقرونة بالتحدى ، ونفى الشيخ أن تكون المعجزة من نوع المستحيل عقلا ، وعدها خاضعة لناموس آخر طبيعى ، وضمه موجد الكائنات ، غاية ما في الأمر أننا لانعرف هذا الناموس الآخر ، .

وذهب إلى أن النهي عن الأكل من الشجرة وأكل آدم منها كأنهما رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام ، أو مظهران من مظاهر النوع الإنساني في الوجود !!

ثم شرح أحوال العالم قبل الإسلام وما شابه من مشارب الوثنية وضلالات الإباحية ، وويلات الحروب ، ودنس الأخلاق ، فكان من رحمة الله أن أرسل فيهم رجلا منهم ، يوحي إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يكشف تلك الغمم ، فولد محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل (٢ من أبريل سنة ٥٧١ م) .

وتكلم الشيخ عن تواتر القرآن وحفظه وسلامة نصه ، وأكد أن الإسلام جاء بالتوحيد الخالص ، وحقق حرية الإنسان ، وأنحى على التقليد ، وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وحقق الوحدة في الناس ونص على أن دين الله في جميع الأزمان واحد ، وهو إفراد الله بالعبودية والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه ، وأن اختلاف الشرائع بين الأديان الصحيحة — سابقها مع لاحقها — مصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة ، والملاءمة للزمان . .

ترقي الأديان بترقي الإنسان :

يرى الشيخ أن الأديان جاءت والناس في معرفة مصالحهم في طور شبيه بطور الطفولة الناشيء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه .

فلم تخاطب تلك الأديان الناس بما يرق إليه سلم البرهان ، وسارت بالقوم وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن ، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو بصره . .

وانتهى الشيخ إلى أن الإسلام آخر الرسالات وأن محمداً خاتم الأنبياء لأنه استجمع للإنسان عند بلوغ رشده — حرية الفكر واستقلال العقل وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع ، ولم يدع أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها .

انتشار الإسلام :

وتحدث الشيخ عن انتشار الإسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ لما امتاز به المسلمون من عدل وما في دينهم من عقل . .

ثم أورد شبهة تتلخص في أن المسلمين اليوم قد تخلفوا وتفرقوا ، وفقدوا سلطانهم ، وصاروا إخوة أعداء . مع أن الإسلام دين الوحدة والرقي والحضارة . .

وأجاب الشيخ بأن الاجتماع الإنساني شاهد بأن الإسلام دواء ناجع ، ظهر نجاحه في كل مراحل التاريخ التي عاش المسلمون فيها حنفاء لله غير مشركين به . .

فالمشكلة تسكن في المسلمين وليست في الإسلام . .

وختم الشيخ رسالته بضرورة التصديق بما جاء به محمد ﷺ بعد أن ثبت بالدليل القاطع أنه نبي يوحى إليه . .

ورأى الشيخ أنه يجب الاقتصار في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني . .

• ثم أشار إلى مسألتين هما الرؤية وكرامة الأولياء، ورأى أن الخلاف فى الرؤية يمكن أن يزول لأن كلا الفريقين يمنع الرؤية البشرية المعهودة بحواسنا المعتادة .

ورأى الشيخ أن مجرد جواز صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية ، ليس موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، ولا يجب شرعا الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين ..

وذهب الشيخ إلى أن شرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين .

فإن ورد ما يوهم التشابه فى متواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد ، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة .

• • •

ولنا ملاحظات :

أولا : إن رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده خلاصة فكر وليست دراسة بحث ، فهى رؤية نقدية تقدم رأى الشيخ فى قضايا الخلاف العقدى بين المسلمين .

أما الدراسة وتفصيل المذاهب واستعراض الأدلة والترجيح بينها فلم يعمد إليه الشيخ ولم يحرص عليه .

ولهذا تكاد تخلو الرسالة من نصوص القرآن والسنة !!

والآيات القرآنية الموجودة فى الرسالة ـ على ندرتها ـ سيق أغلبها على جهة التضمين فى الأسلوب ، وبعضها عبر عنه بالخبر دون أن يسبق بكلمة قال الله تعالى ..

أما الأحاديث فقد تقرأ عشرات الصفحات ولا يصادفك شيء منها .

ثانيا : شيء عجب أن يتكلم الشيخ عن رسالة التوحيد فيحصرها فى الإلهيات والنبوات ، ويعرض إعراضا تاما عن السمعيات مع أن الارتباط عضوى وكامل بين هذه الثلاثة .

وعندما عرف الشيخ علم التوحيد أغفل أيضا جانب السمعيات ، وحصر التعريف فيما يجب ويستحيل ويجوز فى حق الله تعالى وحق رسله عليهم السلام .

ولم يأت ذكر لليوم الآخر فى طول الرسالة وعرضها اللهم إلا كلمات قلائل عند الحديث عن حاجة البشر إلى الرسالة والنبى الذى سماه معينا ، فذكر أنه ليس فى سعة العقل الإنسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة .. ثم إن من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده ، وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال .

ثالثا : تأثر الشيخ تأثرا كبيرا بنظرية تطور الأنواع للفيلسوف الإنجليزى داروين ، وملكت عليه عقله وفكره فلوى نصوصا ، ورفض أخبارا ، وتناول مواقف على غير وجهها الصحيح .

فقال عن النهى عن الأكل من الشجرة ومعصية آدم بالأكل منها ..

كأنهما رمزان إلى طور من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الإنسانى فى الوجود .. !!

وقد فصل موقفه هذا تفصيلا تاما فى تفسيره لسورة البقرة ، وتجرأ جرأة كبيرة على عالم الملائكة والجن والإنس . .

كما أن دعواه بأن الأديان ترقت بترق الإنسان وأن البشرية بدأته بالسذاجة والحس وانتهت إلى العقـل والرشد – هى دعوى متأثرة بنظريات تطور العقيدة عند الغربيين ، وهى تصادم الدين والعقل والتاريخ .

فالدين هو الدين فى بدء الإنسانية وفى ختامها ، أصوله واحدة ، واستنهض الرسل فى كل زمان ومكان العقل والحس معا .

ولم يكن الإنسان فى فترة من التاريخ فاقدا للعقل أو بلا وعى فكرى ودراسة تاريخ الحضارة فى مصر القديمة وبلاد الرافدين والهند والصين تؤكد عمق العقل الإنسانى الذى صاغها .

رابعاً : الهدف الذى سعى إليه الشيخ فى رسالته هو تجاوز نقاط الخلاف وتجميع الكلمة حول جوانب الاتفاق ..

ورأى الشيخ فى كثير من مباحثه أن الخلاف نشأ من غلبة التعصب وعدم صدق الرؤية .

وشبه الفرق المتخالفة بالإخوة الأعداء ووصف اختلافاتهم بمقالات الحق الذين اختبطوا اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق فى السير إلى مقصد واحـــد ، حتى إذا التقوا فى غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر . . .

فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده ، فاستحر بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب .

ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقى وهم الناجون . .

ولو تعارفوا لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا ، ولوافتهم الغاية إخوانا ، بنور الحق مهتدين[١] . .

---

(١) ص ٦٣

خاتمة

وإلى هنا نكون قد مهدنا لدراسة العقيدة الإسلامية ، وقدمنا آفاقا للبحث والنظر ، وعرفنا أهمية دراسة العقيدة ، ومباحثها ، ونشأة العلم وتطوره ..

وقررنا منهج الإسلام فى تأسيس اليقين ، وتأصيل الإيمان ..

وأكدنا أن العقيدة الإسلامية صوت الفطرة ، ودعوة الأنبياء ، والدين الخالص لله رب العالمين ..

وعرضنا نماذج لمؤلفات قدمها العلماء لدراسة العقيدة ..

وعلينا أن نواصل مسيرة العطاء العلمى ، وعسى الله أن ييسر لنا دراسات فى الإلهيات والنبوات والسمعيات ، وأن ينفع بها ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ..

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ..

كتب المؤلف

فى العقيدة

١ — فى نور العقيدة الإسلامية .

٢ — أدب الحديث عن الله .

٣ — علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية .

٤ — التمهيد فى دراسة العقيدة الإسلامية .

٥ — الإلهيات فى العقيدة الإسلامية .

فى الفلسفة

٦ — الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة .

٧ — المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه .

فى الأديان

٨ — المدخل لدراسة الأديان .

٩ — أصول النصرانية فى الميزان .

١٠ — أوربا والنصرانية .

١١ — المسيح ورسالته فى القرآن .

١٢ — عبادة الشيطان فى البيان القرآنى والتاريخ الإنسانى . .

فى الفرق الإسلامية

١٣ — قضية التكفير فى الفكر الإسلامى .

١٤ — الحوار بين الجماعات الإسلامية .

١٥ — مقدمة فى دراسة الفرق الإسلامية .

فى السيرة النبوية

١٦ — الرسول فى رمضان .

١٧ — الرسول حول الكعبة .

١٨ — الرسول والوحى .

١٩ — الرسول وقضايا المجتمع .

٢٠ — الرسول والموافقات .

فى الشريعة الإسلامية

٢١ — محاورة تطبيق الشريعة .

٢٢ — نحو دستور إسلامى .

٢٣ — أخلاق الأسرة المسلمة .

تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان المسير

— رحمة الله تعالى —

٢٤ — السنة مع القرآن .

٢٥ — السنة المطهرة .

٢٦ — إلزام القرآن للماديين والمليين .

٢٧ — دراسات قرآنية .

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب

١٧٤٨٥ / ١٩٩٨ م

I. S. B. N.- 977 - 19 - 7802 - 0

ف ٧١ / ١٢ / ١٩٩٨





